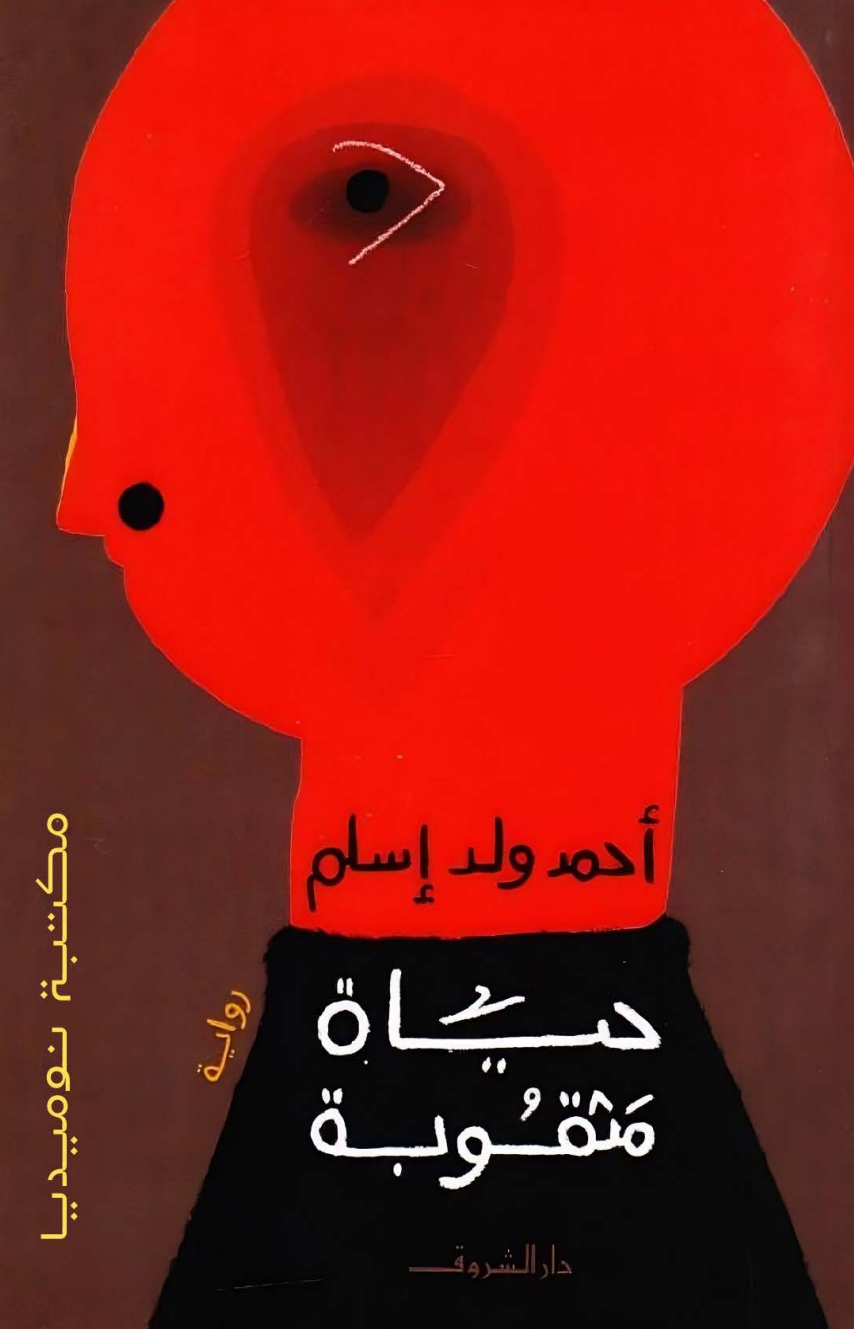

أحمد ولد إسلم
حياة مثقوبة
رواية
دار الشروق
مكتبة نوميديا

حياة مثقوبة

حياة مثقوبة

أحمد إسَلْمُ

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

© دار الشروق

٧ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع / ٢٠١٩
ISBN 978-977-09-0000-0

تصميم الغلاف:

أحمد إسَلْمُ

حياة مثقوبة

(لم يعنون المؤلف كتابه)

دار الشروق

تنويـه

تلقيت قبل أشهر رسالة في بريدي الإلكتروني من ممرضة تدعى فيث، يقول نصها:

تحية طيبة،

تنفيذا لوصية أحد المرضى أرسل إليك هذا الملف من دون معرفة محتواه، فهو مكتوب بلغة لا أفهمها، طلب مني صاحبه إرسالَه إلى عنوانك، ويؤسفني أن قد تحققَ شرطه..

فلترقد روحه بسلام.

ولك مني خالص المواساة..

فيث

خشيت فتح الملف المرفق مخافة أن يكون رسالة تصيّد احتيالي، ثم قررت ـ من باب الفضول ـ فتحه، وحين قرأته كان رسالة أو رواية أو يوميات لمريض في أحد المستشفيات، مجرد نص مكتوب بلغة عربية سليمة، لا يحمل اسم كاتبه ولا اسم الشخص الذي يبدو أنه كُتب من أجله.

ولأني فشلت في العثور على أي أثر للمستقبل المفترض ولم أتمكن من التواصل مع الممرضة حيث لا ترد على الرسائل، فقد رأيت من الظلم لهذه الرسالة أن تموت في صندوق بريدي.

لم تكن الرسالة موجهة قطعا إليَّ، فلا أعرف شخصا بالمواصفات الموجودة فيها، وقد نشرت أجزاء منها على شبكات التواصل الاجتماعي، وبذلت وسعي في العثور على من يعرف المرسل أو المستقبل المفترض، ولكني فشلت في ذلك.

لم أغير حرفا منها ولم أصحح حتى بعض أخطائها الإملائية، ولكن وضعت لها عنوانا لدواعي النشر، وقد أرسلتها إلى عدة دور محاولا إقناعهم بنشرها، فقوبلت بالرفض لأني لا أملك الحق القانوني لذلك.

تنويه آخر

المعطيات الطبية الواردة في الرواية لا تستند إلى مصادر علمية، وعليه يرجى من القراء عدم الاعتماد عليها في فهم أي من الأمراض المذكورة.

إهداء

إلى OACIMA..

الاسم الذي كان يفترض أن الرسالة موجهة إليه..

١

هل تذكرين تلك الصورة التي أرسلتِ إليَّ عشيةً ربيعيةً تُحدّث زخات المطر المتكاسلة فيها نافذتي حديثا هامسا كحديثنا؟

كانت لحائط في إحدى الدول العربية التي تمنع الحب، تحمل جدران شوارعها كثيرا من عبارات الغضب، وقدرا كافيا من السخرية اللاذعة، ومن بين كل تلك الألوان المتداخلة برزت جملة كتبت بخط جميل تقول: «كلما أردت أن أقول لك أحبك، طلعت كيف حالك.. وأنا كيف حالك جدًّا..».

لم أعد أذكر التاريخ الدقيق، ولكني أذكر تماما الهيئة التي كنت عليها تلك العشية، وأذكر اللحاف الأبيض الذي كان يغطي قدمي، وعلبة مشروب الطاقة الذي لا يفارقني، وأذكر عدد الهاءات التي أرسلت إليك ضاحكا.

وكيف أخذنا الحديث عن قدرة هذا العاشق المجهول على ابتكار أسلوب في التعبير لو وجد العذريون إليه سبيلا لما مات أحدهم، إلى استعراض رقيق الشعر العربي، وتجادلنا حول غيرة الشعراء فكان رأيك أن ما ينسب إلى أبي الحسن اليشكري أكثر ما تحفظين صدقا في التعبير عن الغيرة، وذلك في قوله:

إني أغـار من النسيم إذا سرى ... بأريـج عرفـك خيفـة من ناشـق

وأود لو سهّــدتِ لا من علـة ... خوفـا عليك من الخيال الطـارق

وقد خالفتك في ذلك، إذ رأيت أن ابن الخياط الدمشقي أدق منه وصفًا في البيت المنسوب إليه:

أغـار إذا آنست في الحـي أنةً حـذارا وخوفـا أن تكون لحبه

فرأيتِ أن صاحب هذا البيت مصاب بجنون الارتياب، وبلغ درجة يخيل إليه أن الكون يدور حول حبيبته، وجادلتك قائلا: إنه لا يقل جنونا عمن يخاف على حبيبته من رؤية غيره في الأحلام، وأن صاحبك ربما يكون مصابا بعقدة نقص، تجعله يخاف أن ترى حبيبته غيره، واستقر الرأي أخيرا أن العشاق مولعون بسوء الظن.

أذكر أني كنت أتخيلك في الطرف الآخر من العالم وأنت تشاركينني الضحك والمحادثة، وكأننا معا، لقد كانت قدرتي على الخيال قريبة من الفراسة الصادقة؛ من رمز التعبير الهاتفي أستطيع تخيل وجهك، من عدد الهاءات أرسم لك سعة الابتسامة أو رنة الضحكة العذبة.

لقد خلقت لك من الغيب عالما مشهودا، أنظر إليك فيه بحنان أو بأسى، أو بدهشة، وحتى نبرتك في الرسائل الصوتية كنت أميز فيها في أي غرفة من بيتكم أنت، عندما تقولين صباح الخير وتكون الساعة قرابة منتصف الليل، أو تتنهدين مع صفير خفيف متذمرة من زحمة المرور في الطريق إلى مكتبك، وحين تفتحين التسجيل عمدا لمشاركتي أغنية تعلمين في قرارة نفسك أني أمقتها، أو حين تغنين لي بصوتك الذي يستحق بجدارة أن يوظف في صافرات الإنذار.

في كل مشهد كنت أعيشك واقعا قريبا، أصدق مما لو كنا معا.

عندما تلقيت منك رسالة منتصف شهر ديسمبر تقولين فيها من

دون مقدمات: «أريد أن أكون صديقة لك»، وأجبتك بالقبول، لم أكن قد تخيلت بعد شكلا واضح المعالم لتلك الصداقة.

أذكر أني أخبرتك أني فاشل في الصداقة بامتياز، وأني مبتلى بخسارة كل من دخل الدائرة الصغرى، لكني تعهدت لك بأمر واحد؛ أني لن أؤذيك.

أخبرتك عن أقرب أصدقائي، ذلك الذي أمضيت خمسة أعوام لم أتواصل معه، وحين التقينا تحدثنا كأننا لم نفترق يوما، وأن تلك هي صفة الصديق بالنسبة لي.

طيلة عام من المحادثات اليومية تخللتها تسعة لقاءات عابرة، كان كل منا يرفرف بقلبه فوق الحب من دون السقوط فيه، كان كلانا يعلم أن الحب ليس لنا، وأن أقصى ما قد تجود لنا به الأيام أن نكون حيث نحن، أقرب من صديقين وأبعد من عشيقين.

وحين انقطعت عنك فجأة كان لك عليَّ عتب لذيذ، لا يحمل جفاء المغدور، ولا إعذار الحبيب، ووعدتك حينها أنني سأخبرك كل شيء حين يكون الوقت مناسبا.

ثم التقينا وما كنا على أمل، ثم افترقنا، وحز في نفسي ما كتبتِ فورَ ما اعتقدتِ أنه فراقنا الأبدي، وكتمت زفرة عميقة كادت الأضلاع تعجز ـ على سعتها ـ عن حملها.

اليوم استحضرت كل ذلك دفعة واحدة، حين اقتربت مني ممرضة أنيقة وباسمة دائما، وطلبت مني رقما للطوارئ.

كدت أعطيها رقم هاتفك، وقبل جزء من الثانية من ذلك القرار

استدركت الأمر وطلبت منها إسنادي وأن تضع جهاز الحاسوب على حجري.

كنت مدركا تماما أن ذلك العاشق المجهول الذي تندرنا بشيء من الإعجاب الخفي على عبارته ربما كان عاجزا عن قول «أحبك» ليس خوفا من المجتمع أو نظرة من يعشق إليه، بل لأن جهازه العصبي يتعرض لنوبة من المرض الذي أفلح الأطباء أخيرا في اكتشافه عندي.

تعلو الآن وجه الممرضة تلك النظرة التي تحمل كثيرا من الشفقة، وقليلا من المهنية، وهي تحاول إقناعي أن أسترخي قليلا، وأن لا أجهد ما بقي من أعصابي.

وقد نجحت في أن أستخلص منها وعدا ـ بدا صادقا ـ أن ترسل إليك ما استطعت إكماله من هذه الأسطر قبل الموعد الذي طالما استبطأته، وبين خوفها الإداري المبرر، وإنسانيتها الفياضة، حين عرفتْ ما قد تحمل الرسالة، تعهدتْ أن تفعل.

إنها تغادر الغرفة وهي تواري دمعة متحدرة بكسل، ولم تلتفت إلى الوراء، تلك الالتفاتة التي تعمق الجرح المتواري خلف القسمات المهنية، الالتفاتة نفسها التي لاحظتِ أني تجنبتها عندما نظرت إليك آخر مرة وأنت تعبرين الشريط الفاصل بين المسافرين والمودعين في المطار، حين جمعتنا الغربة لثلاثة أيام بعد رسالتك الأولى بأربعة أشهر وقبل صورة العاشق بمدة لم أعد أذكر طولها.

في لحظات الضعف البشري ـ عادة ـ يتشبث الإنسان بأضعف الأسباب للبقاء، حتى اسم هذه الممرضة الإفريقية كان حافزا لي على الابتسام، كان اسمها «فيث»، وكان تذكيرا لي بالإيمان الذي

أحتاج منه في هذه اللحظة أقصى الجرعات قوة، الإيمان الذي لا أتذكر ضرورته إلا في مواقف مشابهة.

ولكن على العكس من ذلك تماما، حين أفلح الأطباء أخيرا في تحديد المرض الذي يرتع في جهازي العصبي منذ سنوات، كان وقع الخبر عليَّ محيرا للطاقم الطبي.

كان الفريق الطبي في حالة استنفار تلطيفي لتقديم المعلومة التي يرونها صادمة، بطريقة تجعلني أتقبلها بأقل الخسائر المعنوية، لكنهم صدموا من الجواب.

لا داعي لشرح التفاصيل، أعرف كل شيء عن هذا المرض، أعراضه ومضاعفاته وعوامل خطورته، وأعرف أيضا أن لا علاج حتى الآن له، وفروا عليكم عناء الحديث واتركوا «فيث» تعثر على وريد يستطيع استقبال الحقنة.

كان ذلك جوابي باقتضاب شديد، خرج الفريق الطبي متهدل الأكتاف، ذابلا كزهرة وضعت في كيس بلاستيكي لأيام.

وبعد مغادرته بدقائق كانت إخصائية نفسية حسناء من قسم الرعاية التلطيفية تنحني بابتسامة متكلفة جدًّا، وهي تطمئن على حالي، وتشرح لي ضرورة أن أسمح لها بزيارتي من وقت إلى آخر، وأن أخبرها عن لحظات سعيدة في حياتي.

كان أمرا غريبا حين أخبرتني أن تخصصها يدعى علم النفس الإيجابي، وهو خليط غير متمايز من علم النفس الغربي، ممزوجا بشيء من الثقافة البوذية ومُطعَّما بقليل من رقائق الإيمانيات

الإسلامية، ربما أضافت العنصر الأخير إلى الخلطة حين عرفت هويتي.

وجدت من الجلافة أن أرفض عرضا من حسناء في آخر أيام حياتي، حدثتني عن تجاربها في الحياة، وعن مواقف مشجعة لمرضى غادروا الدنيا ـ يا لحظهم ـ وهم ينظرون إلى طلاء أظافرها الشفاف، وأنهم كانوا سعداء، ربما هم معذورون في ذلك.

اقترحتْ أن نشاهد معا فيلما يحكي قصة تعيسة عن شابة تتعايش مع داء «أبناء القمر» وكان فيلما سخيفا.

وفي النهاية، وتحت وطأة إلحاحها حدثتها عن لقائنا في مدخل الفندق، وكيف أمضينا ليلة نجوب شوارع المدينة تحت المطر، وعن استغرابك أني لم أسمع من قبل أغنية «أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي»، وكان أكثر ما صدمها في القصة وأبدت تأثرا به، أني أهديتك باقة ورد اشتريتها من محطة للوقود، وأنها أول باقة ورد تتلقينها في حياتك، رغم أن عمرك تجاوز الثلاثين.

٢

استيقظت صباح اليوم منزعجا وكانت هذه الأبيات على لساني:

أنا جوهر الأحزان والهم والشقا ومدفن أحلامي وشاطئ نكستي

تقلبنـــي الأيــام غمـا ومحـنـة فأطرق باب الموت أطلب نجدتي

فيرفض حتى الموت فتحا لبابـه ويتركني وحدي أعانق حسرتـي

سأغرق قبل الشط شبرا وتختفي بعمق بحار الحزن روحي وجثتي

الأبيات أكثر من ذلك، ولكن لم أتدارك منها إلا هذه الخمسة، فقد كانت لمسة آنجيلا الحانية تربت على يدي وتوقظني بهدوء لأخذ جرعة صباحية من الدواء.

رفعت بصري إليها مبتسما، كانت إشارة اسمها فوق نهدها مباشرة، ظنت المسكينة أن ابتسامتي الواهنة ترحيب بها، وما علمت جمال المفارقة، فالأبيات التي أرددها في نفسي تتحدث عن استعجال الموت، وترافق رفرفة اسمها الملائكي مع كل نفس تأخذه.

آنجيلا هي الممرضة الصباحية التي تنوب فيث، لا أعرف هل كان ذلك عن سبق إصرار من المستشفى باختيار أسماء جميلة للممرضات، أسماء تبعث على التفاؤل، ولكن آنجيلا كانت اليوم أكثر إشراقا، كدت أسألها هل تدرك معنى اسمها؟

ربما لا ترتبط الملائكة في ثقافتها إلا بالنقاء والصفاء والجمال، ولذلك سميت آنجيلا، ولكنها لا تعرف أن الملائكة في ثقافتي متعددو الوظائف، ومن كنت أتوق إلى رؤيته اليوم منهم هو ملك الموت.

بعد جرعة الدواء الصباحية المرة، وتغيير شرشف السرير، وجولة روتينية للأطباء خلوت بنفسي، وهذا تعبير مجازي طبعا، فلا أحد يخلو بنفسه في قسم العناية التلطيفية الذي نقلت إليه.

فالغرفة الفسيحة محاط سريرها بعدد كبير من أجهزة المراقبة الطبية، وبين الفينة والأخرى تطل الممرضة للاطمئنان على وضعية السرير وقوائمه وحواجزه، ولكني خلوت بنفسي على أي حال، ومما استغرق مني وقتا طويلا في التفكير، محاولة فهم الموت.

لماذا يكرهه الناس إلى هذه الدرجة؟

وخلصت إلى أن الناس في الأمر ثلاثة:

مؤمن أن هناك بعثا بعد الموت ولا يرى أنه قدم ما يكفي من العمل لاستحقاق المكافأة ويخشى من أبدية العذاب، فهو غير مستعجل قدومَه، ويتمنى أن تمتد به الأيام، مع يقينه أنه قد لا يقدم في ما بقي من أيامه أحسن مما قدم فيما مضى منها، ومعرفته أن قبول ما سيقدم أمر غيبي يستحيل الجزم به، فربما يستحق المكافأة على أحقر عمل يعتقد أنه قدمه.

فهؤلاء لا يخافون الموت لذاته، بل لما بعده، يخافون أن تدوم مدة عذابهم أو تطول، ولا ينقضي عجبي من هؤلاء، فقد سيطرت عليهم سوداوية قاتمة، فالأمر معهم لن يعدو احتمالات ثلاثة:

إما أن يعذبوا أبدا فلن تغني عنهم سنوات قليلة من العذاب في هذا العالم أو النعيم شيئا، ولن يتذكروا أي تفاصيل عنها، لا عن نعيمها ولا عن عذابها.

وإما أن يعذبوا ردحا من الزمن يعقبه نعيم أبدي لن يذكروا معه ما مر بهم من سوء، حتى سنوات الجحيم الطويلة.

وإما أن لا يعذبوا إطلاقا فيكونوا قد خسروا لحظات جميلة من حياتهم وهم يعيشون خوفا من المجهول، حرمهم متعة الحياة القصيرة.

وأما الصنف الثاني فهم قوم على قناعة تامة بمصيرهم بعد الموت ويعرفون أنه سيكون نعيما دائما أو عذابا دائما، فهؤلاء خوفهم من الموت أدعى للاستغراب، فإن كان نعيما فلمَ الخوف؟ وإن كان عذابا يقينا فلا قيمة للخوف من المؤكد، فالخوف مرتبط عادة بالمجهول، والإنسان لا يخاف مما يعرف.

وأما الصنف الثالث فهم قوم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، ويرون هذا الجسد مجرد كتلة فيزيائية تتوقف فجأة عن العمل حين تنتهي صلاحية المحرك، وهم يعيشون سادرين في هذه الحياة لا يردعهم خوف ولا يستخفهم طمع، ولكنهم أشد الناس خوفا من الموت، ولا عجب في ذلك، فعندما لا يكون هناك سوى الحاضر فلا أحد يرغب انتهاءه حتى ولو كان حاضرا تعيسا مليئا بالآلام.

المشترك أن الأصناف الثلاثة على قناعة تامة أن الموت آت لا محالة.

خلال تجوالي في العالم وقراءتي الموسعة في تاريخ الحاضرات لم أجد قوما ينكرون الموت عن قناعة، اختلفت تقاليد استقباله بين كل حضارة وأخرى، هناك من يرحب به، وهناك من يخافه، هناك من يمتدحه ويستعجله، وهناك من يمقته ويذمه ويتمنى تأخره، ولكن لا أحد أنكره، لا أحد استطاع منعه حين يأتي في وقته الحتمي.

بحثت في دواخل نفسي، خلال الساعات الماضية منتهزا فرصة استراحة الغداء، حين طلبت مني آنجيلا أن أضع الحاسوب جانبا وأرتاح، أسدلت الرداء الأبيض بأناقة على جسدي المسجى، تأكدت من وضع السرير، وأحكمت إغلاق عوارض الحماية من السقوط على جانبيه، ومددت الوسادة بلطف تحت رأسي، وكان اسمها يخفق مع كل نفس ولا يبعد من عيني المبصرة إلا المسافة الكافية للقراءة، وكانت عيني العمياء تحسدها على ذلك.

حاولت أن أجد لنفسي موضعا بين الأصناف الثلاثة الذين يخافون الموت، وكلما وجدت مشتركا مع أحدها برزت نقطة خلاف جوهرية، وتأكدت في الخلاصة أني لا أشبه أيا منهم.

أنا الشخص الوحيد الذي أعرفه يتمنى الموت لا خوفا ولا طمعا، أنا الشخص الوحيد الذي لا يخاف الموت ولا يخاف نتائج الفحوص الدورية ولا يخاف خسارة فريقه في كرة القدم ولا يخاف فقدان حبيبته، ولا يخاف شيئا.

لقد صرت كذلك خلال هذه النوبة من المرض، ربما تكون ضربة هذه النوبة استهدفت أساسا الأعصاب المسئولة عن الخوف، إذ لم أكن يوما كذلك.

لقد كنت أخاف الظلام خوفا عميقا، وأخاف العقارب والأفاعي، وأخاف من الكلاب ومن الشرطة ومن نظرة أبي الحادة، ومن ابتسامتك، ومن اطلاع أخي على علبة السجائر في محفظتي، ومن أي فتاة ذات عينين خضراوين، ومن رنين الهاتف المتواصل حين لا تجيبين المكالمة، ومن التأخر عن موعد محدد، ومن دقات ساعات الجدران حين يهدأ الليل، ومن حفيف الأوراق حين يحركها النسيم، ومن نظرة ضباط الجوازات عند بوابات المطارات.

كنت أبلغ الدرجة القصوى من الخوف في كل ذلك، ترتفع نبضات قلبي، تكسو جسدي قشعريرة عارمة، تنفتح فجأة كل مساماته بعرق جارف، تبتل كل ملابسي الداخلية وحتى الخارجية أحيانا، وتصطك أسناني وتسري برودة غريبة في عظامي من أي موقف سخيف، ثم يختفي ذلك حين أتجاوز الموقف.

خلال الأشهر الماضية اختفى كل ذلك من دون سابق إنذار، فجأة اكتشفت أني لا أخاف، لقد كنت في الطابق الأرضي، حين دوت صافرات الإنذار في المبنى وعلت الأصوات في السماعات المنتشرة في أرجائه بعبارة: «يرجى إخلاء المبنى فورا، هذا ليس إنذارا تدريبيا، يرجى التوجه إلى أقرب مخرج إليك، وترك كل ما في يدك».. كنت أسمع جلبة في الممرات، وأضواء سيارات الإطفاء والإسعاف تتسرب إليَّ من الستائر، كان يفترض بصوت الإنذار أن يكون مفزعا، وفي العادة لديَّ حساسية مفرطة من الصوت المرتفع، ولكني لم ألاحظ أي استجابة لا من عقلي ولا من جسمي، كنت مستلقيًا على الأريكة أقرأ كتابا وألقي بين الفينة والأخرى نظرة على التلفزيون من دون اهتمام بالمحتوى.

تعالت الطرقات على الباب، فقمت بهدوء إليه، كان جيش صغير من رجال الدفاع المدني على أهبة اقتحام الباب، وقد تفاجئوا من منظري الباهت فيهم.

ـ سيدي ألم تسمع صافرات الإنذار؟

ـ بلى سمعتها، ولكنها ليست أمرا جديدا.

ـ جهاز الإنذار يقول إن مصدر النيران في مطبخك؟

ـ حقا؟!

قلتها من دون أدنى عاطفة.

تجاوزني أحدهم فتبعته البقية، كان خيط خفيف من الدخان بدأ يتسرب من تحت الباب المغلق بإحكام شديد بحيث لا يترك متنفسا لروائح المطبخ، كانت النيران التهمت كل شيء تقريبا وتسربت من النافذة الخارجية صاعدة مع أسلاك الكهرباء الموصلة للمكيفات في الطوابق العلوية، وكان فريق الإطفاء قد بدأ عمله في الجهة الخارجية وأخمد النيران قبل أن يتأذى أحد.

عند فتحهم باب المطبخ امتلأ البيت بدخان أسود كثيف، وسارع رجال الإطفاء إلى إخراجي، كانت سيارة إسعاف في استقبالي عند مدخل البناية.

سمعت أحد المسعفين يتحدث عن صدمة، وكان آخر يطمئنني بأن الحريق سُيطر عليه، أجرى قياساته الأولى؛ كانت نبضات قلبي مستقرة تماما ونسبة الأوكسجين في دمي مطابقة للمعتاد.

تقدمت طبيبة نفسية كانت مرافقة لفريق الإسعاف، ولحق بها

شرطي، سألتني بداية أسئلة عامة عن حالي وعن عملي، ثم سألتني إن كنت على علم بأن حريقا شب في مطبخ شقتي؟

أجبت أني أدركت ذلك الآن من خلال رجال الإطفاء.

قال الشرطي: لماذا لم تحاول إطفاء الحريق أو تتصل بالطوارئ.

أجبت أني كنت مستغرقا في قراءة كتاب ولم ألاحظ الحريق، ولم يبد في كلامي أدنى مستوى من التأثر.

قالت الطبيبة النفسية: هل كنت وحدك؟ ألم يتسرب إليك الدخان؟

أجبت بالنفي، ولم ألاحظ في نفسي كما لم تلاحظ الطبيبة أي مشاعر للخوف أو التوتر.

لاحقا حين أنهت شركة تنظيف إخلاء حطام المطبخ، ونظفت مخلفات الحريق الذي أتى على كل شيء؛ الفرن والثلاجة والغسالة والسخان ومحمصة الخبز، وكل أدراج المطبخ، وشوه كل الأواني.

عدت إلى غرفة النوم ونمت بعمق شديد ولم أشاهد لأول مرة تلك الكوابيس التي كنت أشاهدها عادة.

استيقظت صباحا أشعر بجوع ماحق وحين فتحت المطبخ تفاجأت أنه فارغ تماما من كل شيء، لا أجهزة ولا معدات ولا طعاما، حاولت استيعاب الموقف، عدت إلى مذكرتي التي أدون فيها كل الأحداث اللافتة منذ اكتشفت فقدان الذاكرة قصيرة المدى.

لم أجد فيها شيئا، فتحت الحاسوب، واستعرضت فيديوهات نظام المراقبة الذي ركبته لأستعين به في العثور على الأشياء التي أنسى أين وضعتها، ففوجئت أن حريقا شب الليلة الماضية وأني

فقدت مطبخي وكل ما فيه، وأن فريقا من الدفاع المدني والشرطة كان يتجول في الشقة وكنت من فتح لهم الباب.

عندما استيقظت لم أكن أذكر شيئا من ذلك، والغريب أني لم أشعر بأي ذرة خوف أو ندم أو إحساس بالخسارة، توجهت إلى البقالة المجاورة واشتريت ما أسد به رمقي، وصادفت في الطريق ذهابا وإيابا حارس البناية وجارين من جيراني كانوا يرددون عبارات التهنئة بالسلامة وكنت أرد عليهم ـ لا إراديا ـ بالشكر.

خلال الأسابيع اللاحقة لم يراودني شعور بالخوف من أي شيء، كان ذلك أمرا مزعجا، فالخوف إحساس بشري جميل، إنه علامة واضحة على تمام الإدراك، وعلى سلامة الفطرة البشرية، وحين نفقد الإحساس بالخوف، ولو بنسبة ضئيلة منه فإننا نفقد جزءا كبيرا من بشريتنا.

الخوف كان العامل الأول لتطور الإنسان، لو لم يكن الإنسان البدائي خائفا من البرد لما اخترع النار، ولو لم يكن خائفا من الموت لما طور الأسلحة، ولو لم يكن خائفا من الجوع لما اكتشف الصيد، الخوف أكثر الغرائز البشرية سموًّا، إنه أسمى حتى من الحب، لولا الخوف من الحرمان لما كان للحب قيمة.

لا أذكر كثيرا من المواقف اللاحقة التي لم أشعر فيها بالخوف، لأني لم أدون كثيرا منها، وبعض ما دونته كان سخيفا ولا أريد تضييع وقتك في قراءته، على افتراض أن الممرضة فيث ستكون صادقة في وعدها وترسل إليك هذا الملف من بريدي الإلكتروني.

لحظة..!

أليس هذا موقفا كان يستدعي الخوف؟!

لقد كنت أعيش رهابا حقيقيا من اكتشاف كلمة مرور حاسوبي، فضلا عن اكتشاف كلمات مرور حساباتي الإلكترونية.

حينما تعرضت للنوبة الأولى من المرض واكتشفت الخلل في ذاكرتي، وفي تركيزي، كان أكثر ما يخيفني أن أنسى كلمات المرور، أو أن أنسى أحد حساباتي مفتوحا في مكان عام أو مكان يتيح الوصول إليه لغيري، بادرت فورا بإغلاق كل حساباتي في شبكات التواصل الاجتماعي، لم يكن ذلك قرارا سهلا أبدا، فقد صُممت هذه المواقع خصيصا لأمثالي، صممت لتجعلنا نشعر بالانتماء، والتشارك، لنصنع ذكريات مشتركة، ولنشعر بالخسارة حين نغادرها ولو دقائق.

لم أنس ـ بعد ـ الرسالة التي كانت على الشاشة تحمل صورتك وصورة عدد من الأصدقاء الافتراضيين، وتقول: «عند الضغط على نعم ستخسر ذكرياتك المشتركة وتواصلك مع هؤلاء» كانت رسالة مؤذية، مؤذية جدًّا، كانت أقرب إلى التهديد منها إلى وسيلة للترغيب في البقاء.

لكني ضغطت زر الموافقة، ليس رغبة في خسارتك وخسارة الأصدقاء الآخرين، بل حرصا أن تبقى أنت وهم في مكان آمن لا تصل إليه خوارزميات الشبكات الإلكترونية.

كنت أعتقد أن في مساحة ذاكرتي متسعا لكم جميعا، ومع التقدم في الأيام والتسلل المقيت لهذا المرض الماكر إلى خلايا ذاكرتي لم أعد أذكر أيا من تلك الوجوه التي عرضت على شاشة الحاسوب لحظة قرار مغادرة تلك الشبكة، ولكني ما زلت أذكر أنك كنت الوجه الأبرز من بينهم.

هذا يعني أن الذاكرة انتقائية جدًّا.

«ولقد عجبت للإنسان كيف تنتقي ذاكرته من بين ملايين اللحظات التي تمر بها منذ بداية الإدراك وحتى مفارقتها عالم الحس، عددا محدودا تبني له حصنا منيعا، ترفض أن يغادره، وتُبقي لديها دائما متسعا لتشييد حصون جديدة لأحداث أو أشياء تختارها.

ولطالما راودني سؤال مزعج وغريب، عن طبيعة ذلك الانتقاء وكيفيته، فلماذا نتذكر يوما واحدا من سنة تتشابه أيامها في الطول والقصر والشروق والغروب، وأحيانا كثيرة في المضامين، وتمر عشرات السنوات لا تتوقف ذاكرتنا فيها عند يوم واحد؟

ولماذا ترسخ كلمة واحدة أو ابتسامة أو همسة، أو حتى إيماءة عشوائية لا دلالة لها، وتتسرب بقية الكلمات والأحداث بهدوء من سور الذاكرة من دون أدنى ندم على ذلك؟

وما المعايير التي تضعها الذاكرة للسماح بخروج ملايين المعلومات، أو تخزينها؟

تجابهني الأسئلة ذاتها كلما أزمعت سفرة، أو غيرت سكنا؛ إذ أنثر جميع أشيائي، ثم ألتقط منها آحادا متفرقة، وأذر الباقي، فأستغرب كيف تصر قصاصة ورق صغيرة مقتطعة من ورقة تصويت على مرافقتي أينما كنت منذ أكثر من عشر سنوات، وكيف ينزوي بجانبها صك مصرفي انتهت صلاحيته قبل ميلادي، وصورة غير ملونة لم تعد تشي بأي إيحاء يدل على أصحابها، وكذا بطاقة بريد من مدينة لم أمضِ فيها غير ساعات..!

وأتساءل هل سيكون ذلك الانتقاء هو ذاته لو كان من قررنا إحالتهم إلى سلة الذكريات وتركهم في دِمَننِا، حاضرين معنا لحظة إعادة الترتيب، ورافقونا إلى بوابة المغادرة؟

ثم أقلب نظري في أحوال الناس وذكرياتهم فأجد المغترب أكثر الخلق عناء في حفظ وترتيب متحفه الصغير، ففي ذرعه الأرض تنتقي الذاكرة لحظات معدودة تشيد حولها سورا سميكا، وتحفظ وجوها ـ ربما تكون من عامة الناس ـ تحفر قسماتها على جدار السور، ثم تشقى بعد ذلك في مقارنة تلك الوجوه مجهولة الأسماء، بوجوه مجهولة جديدة تصادفها في دروب الزمن، أو ينعكس ظلها على المرآة الجانبية للحياة المسرعة إلى المصير.

وربما تقسو على المغترب ذاكرته حين تصر على عدم إغفال أي شيء مما يستحسن حمله؛ من المواقف والأشخاص والذكريات، أو تراوده لتأجيل الرحيل مخافة أن لا تسع الحمولة المرخصة متاعه المتناثر.

وأكثر ما في الأمر إثارة للتساؤل؛ أن أناسا وقرى وأحداثا، نعيش معهم سنين عددا، ثم لا نذكر بعد فراقهم لحظة واحدة استطاعت هتك حجاب التجاهل السميك المحيط بمخازن ذاكرتنا.

فنجد شخصا شاركنا نصف العمر أو زاد على ذلك، ثم غاب عن الأنظار، ونحرج إذ نلتقيه من ترددنا في نطق اسمه مخافة الخطأ.

أتراه التأثير النفسي لتلك المواقف والأشخاص والأحداث والأشياء، هو الذي يختار لكل ذلك مكانه اللائق، أم هي ردات فعلنا على ذلك التأثير، تجعلنا نتشبث بما انتقينا باعتباره لحظة من سيطرتنا التامة على ذواتنا؟

أكفيل تقادم الأزمنة بإعادة ترتيب متاحفنا المتنقلة، أم أن الذكريات التي استعصت على تالد الأيام ستكون أكثر تحصينا في مستقبلها... هل ترى سأذكر يوما كيف كتبت هذا.. ولماذا؟».

لقد كتبت هذه القصاصة الموجودة بين علامات الاقتباس قبل مدة طويلة ولولا أن الموقع الذي نشرها ذات يوم ما زال محتفظا بها لما عثرت عليها، تذكرتها فجأة حين كتبت لك عن انتقائية الذاكرة التي

تعد حقا بشريا خالصا للإنسان، إذ باتت شبكات التواصل الاجتماعي تحاول الاعتداء عليه، تلك الشبكات التي غادرتها خوفا على ذاكرتي، وها هي ذاكرتي التي طالما كانت أقوى ما أراهن عليه تخونني.

تخيلي أني خسرت ذلك الإحساس العميق بالخوف، وأعطيت لممرضة مجهولة لا أعرف عنها سوى اسمها الأول مفتاح الولوج إلى حاسوبي.

وعندما أقول مفتاح الولوج إلى حاسوبي، فهذا يعني أني صرت مكشوفا أمامها تماما.

حسنا.. أنا مكشوف جسديا أمامها منذ مدة، فكثير من وظائف هذه الكتلة العضوية معطلة مؤقتا، ولكن امتلاكها كلمة مرور حاسوبي ستجعلني مكشوفا كليا؛ روحا وجسدا، تاريخا وحاضرا، وربما مستقبلا.

ومع ذلك لم أجد أي إحساس بالتردد وأنا أملي عليها كلمة المرور، التي كانت للمفارقة اسمك مزخرفا بعلامات الترقيم، مبالغة في الحرص على حماية البيانات من أيدي القراصنة المجهولين، يوم كنت أخاف.

٣

إن هذا التلف المتزايد يوميا في جهازي العصبي لم يصل بعد إلى ثلاثة مواضع، الموضع الذي أحفظ فيه الشعر العربي، والموضع الذي أخزن فيه ذكرياتي الخاصة معك، والموضع الذي يبدو أن هذا الملف مخزن فيه.

فعندما أستيقظ صباحا وأستوعب المحيط الذي أوجد فيه، أتذكر ثلاثة أشياء؛ بيتا من الشعر بشكل عشوائي، وأنت، وجهاز الحاسوب الموضوع على الطاولة الصغيرة المحاذية لسريري.

طلبت من آنجيلا وفيث أن تحرصا عند كل تفقد لسريري على توجيه شاشة الحاسوب إليَّ، وتعمدت إلغاء كل الإعدادات التي تسمح له بإغلاق الشاشة أو جعلها في وضع السبات، وحين ألتفت إليه أرى شاشته المقسمة إلى ثلاث خانات:

ـ خانة فيها هذا الملف الذي أكتب فيه كلما استطعت ذلك.

ـ وخانة فيها صورتنا معا حين كنا في مطعم مساء يوم جمعة نستكشف الذوق الأمريكي الرديء في طهو اللحوم.

ـ وتحمل الخانة الثالثة ساعة بمؤقت وتفاصيل هويتي، وسبب وجودي هنا.

لا أذكر بالضبط متى قسمت الشاشة هكذا، ولكن لا شك أنه أمر

لاحق لقرار إبقائي في المستشفى، وقد تركت وصية لدى الممرضة آنجيلا أن يكون رقمك هو أول رقم يتصلون به حين أغادر هذا العالم، وأن لا يتصلوا به أبدا خلال أي نوبة من فقدان الوعي، أو سبب آخر، وشرحت لها بالتفصيل الممل أنك لا تعرفين عني أي شيء مما قد يفيدهم، سوى أنه يهمني حين أغادر هذه الدنيا أن تكوني أول من يعلم.

ترددت مرات كثيرة في إلغاء تلك التعليمات، فما فائدة أن تعلمي بموتي ولم تعلمي أني أعاني من أي سابقة مقلقة على الحياة؟

ولكني سبق أن قطعت لك وعدا أن لا أؤذيك أبدا.

لا تقلقي لست وحدك في ذلك، ولكنك الوحيدة في العالم التي سيتمكنون من التواصل معها، فلم أعطهم رقم شخص آخر يتواصلون معه.

في الآثار العربية وحتى الغربية تحقق للمحكومين بالإعدام أمنية أخيرة، هدية وداع سعيدة لهذه الحياة، وكثيرا ما يطلب أحدهم أحب شيء إلى نفسه، أما أنا فقررت أن تكوني أول من يعلم بأمري، ولا أعرف هل ستكون فيث السباقة في إرسال هذا الملف، أم ستكون آنجيلا السباقة في الاتصال بك.

وليس لديَّ ما يطمئن أن أيا منهما ستنفذ المطلوب.

فالعمل في التمريض ـ على إنسانيته ـ يميت القلب، ولا شك أنهما تتعاملان معي بالقدر ذاته من اللطف الذي تتعاملان به مع بقية المرضى، وقد يكون طلباي مجرد رقمين في قائمة طلبات معلقة

على قصاصات صفراء في مكتبيهما، لن تجدا الوقت الكافي أو الاهتمام اللازم لتلبيتها.

عموما تساعدني الخانات الثلاث في شاشة الحاسوب على بدء يوم جديد في الحياة، تختلف طبيعته حسب الجدول المقرر، وحسب حالتي الجسدية والنفسية.

اليوم المثالي هنا هو اليوم الذي أستيقظ فيه بكامل قدراتي العقلية والجسدية، وأقصد بالجسدية ما بقي منها، أو ما يتعطل مؤقتا ثم يعود إلى العمل من جديد.

لقد فقدتْ عيني اليسرى نور الإبصار تماما، وكانت تلك أولى العلامات الجدية لاستحكام المرض الماكر، لم يكن الأمر بغاية السوء، فقد تكيف عقلي سريعا مع الأمر، وساعدني في ذلك أنَّ أنفي ليس كبيرا جدًّا بحيث يحجب مساحة واسعة من الرؤية، ربما لو كان لي أنف بحجم أنفك لواجهت معضلة.

أذكر أنه حين أخبرني إخصائي العيون بأن إصابة عيني تلك ستكون دائمة وغير قابلة للعلاج، نظرا لتلف العصب الموصل إليها، أجبته ضاحكا أن ذلك سيوفر عليَّ عناء إغماضها أثناء ممارسة هواية الرماية.

فقدت أيضا القدرة على تحريك ساقي اليسرى، ولكنها ما زالت إصابة قابلة للإصلاح حسب إخصائي الأعصاب والعلاج الطبيعي.

فقدت كثيرا من وزني ـ ربما يسعدك ذلك ـ لم تعد «الكرش» بذلك الحجم الذي كنت تتندرين عليه، وفقدت أعواما كثيرة من ذكرياتي.

صدقا ما زلت محتارا من طريقة عمل الذاكرة وترتيب ملفاتها

في تلافيف الدماغ، فلديَّ أعوام متوالية لا أذكر منها أي شيء على الإطلاق، لا أحداثا ولا أشخاصا ولا مواقف، لا تقلقي لم تكن رسالة طلبك الصداقة في تلك الأعوام المحذوفة.

يكون اليوم مثاليا أكثر حين يتضمن جدوله لقاء مع كلير؛ إخصائية علم النفس الإيجابي، التي يبدو أنها مشغولة في كثير من أيام الأسبوع، ولا يزيد لقاؤها على خمس وأربعين دقيقة، ولكنها أحيانا تتجاهل ساعتها، وتمضي معي في الحديقة الملحقة بالمستشفى أكثر من الوقت المخصص لي.

شعرت مع كلير بإحساس شبيه بذلك الذي حدث لي حين تلامست يدانا عن غير قصد يوم مددت لي مغلفا صغيرا قديم الطراز يحمل صورة شمسية لك بمقاسات السفارة الأمريكية، وسلسلة فضية صغيرة نزعتها من ساعدك، إنه أشبه بصعقة خفيفة لتيار كهربائي تدوم جزءا من الثانية ولكنها تستنفر كل كياني.

حدث ذلك مرة واحدة، حين كنا نتحدث في حديقة المستشفى قرب النافورة الصقرية ـ لدى إدارة المستشفى ذائقة فنية رديئة، فالصقور أجمل من أن توضع فيها مضخات للنوافير ـ مررت قلمها بهدوء شديد بالكاد يستشعره مجس إلكتروني في مفرق رأسي لثوانٍ وقالت: شعر حريري، ثم واصلت حديثها الذي كان عن رحلتها إلى كمبوديا، وتعرفها إلى مذهب تيرافادا البوذي، الذي لا يؤمن بأي إله خالق، ويركز على الحرية الشخصية، ويعتبر الجشع والحقد والوهم أكثر الآفات البشرية جدارة بالمحاربة.

في جلسات كلير أستمع أكثر مما أتحدث، ويعجبني فيها صبرها

على ذلك، تقول إني لن أشفى من جروحي الداخلية إلا عندما أكشفها، ويغيب عنها أن لديَّ من الأدواء ما هو أحوج إلى الشفاء من توهمات طبيبة نفسية، تتقاضى راتبها مقابل تجميل الأيام الأخيرة في حياة أغنياء مكنتهم ظروفهم المادية من العلاج في هذه المنشأة الطبية الأقرب إلى فندق.

يذكرني حديثها وفتحها لعينيها بكامل سعتهما لحظة الاندهاش، وقدرتها المهولة على قراءة كل شيء، وانفتاحها على الأدب وحبها للموسيقى العربية، يذكرني كل ذلك بك.

صار الحديث بيننا يمضي سلسًا في أحيان كثيرة، فقد وجدت خدعة نفسية طالما كنت أراها مستحيلة تماما، فقد حدثني أحد الأصدقاء مرة أنه حين ينفرد بزوجته يقنع نفسه أنها امرأة أخرى ويتعامل معها على ذلك الأساس، وكنت أعيب عليه الأمر، وأقول له: ماذا لو أتيحت لها يوما فرصة الولوج إلى دواخل نفسك، وعرفت أنك تكون مع غيرها حين تكون معها.

أما أنا فقد بررت لنفسي ذلك ـ أنانية ـ فحين أكون مع كلير ألغي وجودها المادي من المشهد، وأجعل روحك وجسدك مكانها، حتى إنه ليخيل إليَّ أنك من تحدثني ومن تمسك يدي، وأسمع ضحكتها بالرنة العذبة ذاتها التي كنت أسمع بها ضحكتك.

لا أستمع لكثير مما تقول بشكل متأمل، وقد أفقدتني الإصابة العصبية القدرة على الاسترسال في الحديث، ولذلك كل ما يهمني في الأمر أني أمضي معك قرابة الساعة، حتى ولو كان ذلك القرب الفيزيائي محض تخيل صنعته لنفسي.

لم يكن الأمر في غاية الصعوبة، فإذا كان الدماغ قادرا في حالاته المرضية على خلق عالم موازٍ قابل للإحساس والتحقق الكمي من خلال الهلوسات، وهي بالمناسبة عرض جربته واستمتعت به، فلماذا لا يكون قادرا في وضعه الطبيعي ـ أو شبه الطبيعي كحالتي ـ على خلق هذا العالم الموازي، وتحويل المشاعر والإدراك من جسم فيزيائي إلى آخر، عن طريق الإزاحة الشعورية، لماذا لا يكون قادرا على منح كلير كل الصفات الجسدية والنفسية التي تتمتعين بها، وإقناع ذاته أنه لا يُحدث كلير؛ إخصائية العلاج التلطيفي، بل يحدثك أنت؟

بخبرتها الطويلة في المجال النفسي كانت كلير تميز الأوقات التي أكون فيها معها على سجيتي، وتلك التي أكون فيها معها على أنها أنت.

وحين أخبرتها الأمر في إحدى الجلسات لم تستطع إخفاء قدر يسير من الامتعاض، ولكنها بدت مسرورة لأنها حين تكون أنت، أكون معها أكثر انفتاحا، وأحدثها ببعض جماليات الحياة والمواقف، وأصرح لها بمكنون نفسي، ويأخذ الحديث معها منعطفا ممتعا عن الأدب والموسيقى والفن.

وطلبت مني أن لا أشعر بالحرج في ذلك، ففي ثقافتها متعددة المصادر لا ترى حرجا في انتقال الأرواح، ولا تمانع إن حلت في جسدها روحك البعيدة، خاصة أن الأمر لم يكن مشترطا موتها كما تملي عليها ثقافتها، وليس لديها مانع أن تسرّي عن نفس مريض يضع رجله السليمة على عتبة الموت بعد مرور خيبته الرابعة بعد الثلاثين.

وكانت في الأمر متعة لا توصف، ففي حالة التقمص هذه أجدني سليما معافى، أتمتع بكامل السيطرة على مخيلتي وعلى ذاكرتي وحتى على حواسي، فأشتم في عطرها الخفيف عطرك الذي كان يضمخ ثوبك ليلة التقينا على الشاطئ، وأسمع في همسها همساتك حين اقتحم أخوك غرفتك باحثا عن هاتفه وكنت تتحدثين معي، وأرى في وجنتيها الملونتين بمسحة خفيفة من المكياج وجهك يوم لفحتك الشمس ونحن نغادر المطعم الذي تغدينا فيه أول مرة معا، وكنت على موعد بعد الظهيرة فتوقفت في منتصف المسافة للقائي لقاء عابرا.

عندما طلبت مني كلير أن أصف لها نفسي قلت لها: إني رجل يتوسد اليوم أربعا وثلاثين حسرة، ويلتحف الأمل، متوحش حين يفقدك، صريع حين يرى وجهه الشاحب في عيني صورتك المعلقة، يلملم كل يوم شتات نفسه، ثم ما تلبث أن تعصف بها ذكرى أنيقة من لقاءاتك التسعة فتتلاشى.

على قبس ابتسامتك يسلك وهاد الحياة، وعلى شاطئ خدك الأيسر يفقد حماسه فيغفو، يخوض بحار الذكريات ثم يغرق في دمعة بلورية متخيلة من مقلتيك.

نفسي مؤثثة على غير تنسيق بك، في تلك الزاوية لحظة لقاء خاطف تستند إلى جدار من الصمت، تقابلها لمسة مأمولة من يديك، وعلى مدخلها نظرتك الحيرى يحجبها ستار رفيع من الشوق الدفين، وفي وسطها تتربعين: أنت على جلالة حبك.

في حالات أخرى كانت كلير ستصنف هذا الأمر على أنه حالة

متقدمة من الهلوسة ناجمة عن ضرر أصاب الخلايا العصبية، ولكني كنت صادقا معها وأخبرتها أني ـ حاليا ـ لا أرى الأمر أكثر من اختلاق لعاشق عاجز، فلا تراودني هذه الهلوسات مع غيرها، ولا تكون معها إلا بإرادتي، وهذا ما ينفي عنها الصفة المرضية، فاطمأنت.

٤

«تنبع التعاسة الدائمة التي يواجهها البشر من أمر واحد؛ أن البشري عاجز عن المكوث هادئا في غرفته».

بول أوستر

أخبئ الدمع في عيني فأرمقه تحنو عليه جفوني وهو يدفعها
وأكتم الآه.. حتى الآه تزعجني فما أطيق إذا خولت أسمعها

كان لهذين البيتين ثالث لكني نسيته، فقد كانت آنجيلا اليوم كئيبة على غير عادتها، أيقظتني بأقل الطرق لباقة، وضعت يدها تحت رأسي وهي تغمغم بكلمات من لغتها الأصلية لم أفهمها، يبدو أنها سبق أن أيقظتني مرات صباح اليوم ولم أستجب، كانت متوترة وهي تحاول استعجالي للحاق بقسم الأشعة، من أجل إجراء الفحص الدوري بجهاز الرنين المغناطيسي، وتقول إن الموعد لا يمكن تأجيله دقيقة إضافية، ولم تسمح لي حتى بتمرير منديل مبلل على وجهي أحرى بتنظيف أسناني.

فككت مثبت السرير الأرضي، وحركت بمساعدة أحد موظفي قسم الأشعة السرير بكامله، ما أدى إلى سقوط دفتر ملاحظاتي اليومية وقلمًا بلا غطاء كنت أحتفظ به من بقايا لقائنا على الشاطئ، وأعتبره

أكثر الأقلام أمانة، أعادتهما إلى الطاولة وأخرجتني باستعجال كمن يدفع عربة طفل مشاكس للحاق بقطار على وشك الانطلاق.

يوفر جهاز الرنين المغناطيسي تجربة فريدة للحياة داخل القبر، ربما اختلافها الوحيد أنك لا تكون واعيا لحظة دخول القبر.

كنت مسجى على ظهري لا يستر جسمي إلا رداء أبيض خفيف، وكانت آنجيلا المتذمرة تبحث بكد للعثور على وريد قادر على ابتلاع إبرة بمقياس ثمانية عشر مليمترا، ستستعمل لإدخال الملون المركز المستخدم في استكشاف المساحات التي سيطرت عليها البقع البيضاء في الدماغ، وهي بقع توضح مواطنَ توقفَ الأكسجين عن الوصول إليها بشكل كافٍ، واقتحم المرض جدار الميالين فيها.

يصنف المرض الذي أصارعه على أنه أحد أمراض المناعة الذاتية، حيث يمل جهاز المناعة من القيام بوظيفة الدفاع عن الجسم، فيقرر أن يخوض تجربة الهجوم.

يستهدف الهجوم بداية الغمد الميالين، وهو غمد يشبه تماما الغلاف البلاستيكي للأسلاك الكهربائية، وذلك الغمد ـ على رقته ـ يحمي النبضات الكهربائية التي تعد اللغة الوحيدة المستخدمة في التواصل بين الجهاز العصبي وبين بقية الأعضاء، وعند تآكل الغمد الميالين تصبح الأعصاب مكشوفة، وكما يحدث تماما عند تماس أسلاك كهربائية منكشفة الغطاء فإن تلك الشرارة تشوش على وضوح الرسالة.

فبدلا من وصول رسالة واضحة إلى عضو ما ليقوم بوظيفته، تصل رسالة إلى عضو آخر بأمر ليس من اختصاصه، وحينها يعجز تماما عن فهمها وعن الاستجابة لها.

كأن تأتي مثلا أوامر للعين بأن تشم رائحة عطر خفيف وجميل كنت أنت تضعينه ليلة التقينا عند مدخل المتحف الوطني أول مرة.

أو أن يطلب من الأنف أن يستمتع بالسوناتا العاشرة لبتهوفن، أو أن ينظر اللسان إليك من المرآة الجانبية للسيارة وأنت تحاولين وضع الكحل بسرعة ودقة قبل الوصول إلى قاعة السينما عندما شاهدنا العرض السينمائي الأول لك في حياتك.

وحين تعجز الأعضاء عن فهم الأوامر ترتبك وتتوقف عن العمل احتجاجا على وصول أوامر غير مفهومة وغير قابلة للتنفيذ.

ولطالما أعجبني هذا التصرف الديمقراطي من أعضاء الجسم، فهي لا تبذل جهدا في تبرير تصرفها؛ باعتباره حقا طبيعيا، بينما تصنفه القيادة العليا للجهاز العصبي على أنه عصيان فج للأوامر، وتقرر بدكتاتورية وصلف تعطيل أي عضو عن العمل مؤقتا أو بشكل دائم.

فالأعضاء ـ رغم قناعتها بحق الجهاز العصبي في القيادة ـ لا ترى أن له حقا في إعطاء أوامر مخالفة للدستور الناظم لسير العمل والمتعارف عليه منذ اللحظة الأولى للتكون وحتى اللحظة الأخيرة للحياة.

وبديمقراطية عميقة، تتصرف الأعضاء بطريقة غاية في التحضر والسلمية، تنظم عصيانا مدنيا متفاوت المراحل، يتضمن التوقف الجزئي عن العمل، أو العمل ساعات أقل من الوقت المطلوب، وكلما أمعنت القيادة في عقاب عضو ما وأعطت أوامر غبية لعضو آخر بتولي مسئولياته، كلما توسعت دائرة الاحتجاج.

ولأن الجهاز العصبي المركزي لا يدرك أن الخلل فيه وليس في

الأعضاء؛ يمعن في معاقبتها بالتوقيف الدائم أو المؤقت، وشيئا فشيئا مع إصرار كل عضو على مقاومة الدكتاتورية رغم فداحة الضريبة، يتقلص عدد الأعضاء المستجيبين لأوامر القيادة، ثم في لحظة ما يجد القائد الأعلى أن رسائله لم تعد تلقى أي رد من بقية الأعضاء، ومع ذلك يصر على الاستمرار في توجيهها، يقينا منه أنه أعلى مرتبة من الاستجابة لضغوط العامة، وفي الأخير كمن يطلق رصاصة بشكل عمودي على جدار فولاذي، يكون الأمر الأخير الذي يصدره القائد شرارة كهربائية غاية في القوة جمع فيها كل غضبه وعنجهيته وسخطه على عصيان أوامره، غير مدرك أن تآكل الغطاء البلاستيكي أو الغمد الميالليني بلغ ذروته وأن تلك الصعقة ستعود إليه بكل قوتها وبذات السرعة فتصيبه في مقتل.

عندما حدثني إخصائي الأشعة عبر السماعات الضخمة التي تثبت رأسي في التابوت الكهربائي عن أي مقطوعة موسيقية أفضل أن أسمع خلال الفحص ـ وذلك محاولة منه لتخفيف صوت موجات الرنين المغناطيسي المزعج ـ طلبت منه أن يضع لي أغنية للفنانة ديمي بنت آبه، وحبذا لو كانت في «أتشيمير» من شريط لندن.

كان رد فعله باهتا فلم يفهم كلمة مما قلت له، فعلمت أن الرسائل بيننا لا تصل بوضوح، أو تصل إلى الجانب الخطأ، تماما كما يحصل مع جسمي، فتركت الأمر له.

وضع بصوت مرتفع مقاطع طويلة عبارة عن تجميع غير متجانس لموسيقى غربية وعربية وإفريقية، لا يجمعها إلا أنها أخف إزعاجا من الاستماع إلى هدير جهاز الرنين المغناطيسي.

في التابوت الكهربائي المسمى جهاز الرنين المغناطيسي يمنع التحرك منعا باتا، ويستغرق الفحص العادي نصف ساعة، ولكن حالتي تقتضي توسعا في الاستقصاء وتشمل كامل الجهاز العصبي انطلاقا من الرأس والرقبة وحتى نهاية العمود الفقري، وتتضمن أيضا إعادة الفحص باستخدام الملون بعد الفحص الأولي، ولذلك فالأمر يستغرق بين تسعين دقيقة وساعتين.

في الحالات العادية يمضي جسمي أكثر من هذه المدة من دون تحرك، إلا أنه ـ بشكل لا إرادي ـ حين كان ملزما بالبقاء ساكنا كانت لديه رغبة دفينة في العصيان، فكنت كلما مرت عشر دقائق أو أكثر قليلا أجد لديَّ رغبة لا تقاوم في تحريك عضو من أعضائي، وباستثناء الرأس المثبت بقوة، لم أعد قادرا على تحمل البقاء داخل التابوت، تململت أولا ثم حركت رجلي، فصرخ إخصائي الأشعة في أذني أن أثبت، ثم حركت جذعي بهدوء فصرخ الإخصائي بغضب: إذا كنت لا ترغب في إجراء الفحص فلديَّ قائمة طويلة من المنتظرين.

انتهت جلسة التعذيب بالتلوث الصوتي نصف ساعة أطول من المعتاد، وأخرجني إخصائي الأشعة من تابوته، وقسماته تشبه ما يرد في الكتب عن ملائكة السؤال، كان كريه الرائحة قاسي القسمات يضع نظارة طبية تغطي نصف جبهته التي لا تتسع لكتابة اسمه، سلمني إلى آنجيلا التي استقبلتني بابتسامة كأنها رسالة منك بعد طول انقطاع.

سحبتني بهدوء لافت، وحركت السرير بهدهدة طفل في المهد، وانحنت تعتذر لي عن سوء معاملتها صباحا، مبررة الأمر بانزعاج

مديرتها من التأخر، ووعدتني أن تبحث لي عن الأغنية التي طلبت في غرفة الأشعة على أن أساعدها بإملاء اسمها بشكل صحيح.

جاءتني بعد ساعة طالبة أن تشاركني استراحة الغداء، أحكمت إغلاق الباب وأسدلت الستارة على النافذة، ووضعت سماعة هاتفها بأذني وانسابت موسيقى «آردين» الفنانة ديمي بنت آبه وهي تردد بصوتها الملائكي: «قل للمليحة في الخمار الأسود.. ماذا فعلت براهب متعبد».. ثم تواصلت النغمات شفافة رقراقة حتى بلغت ذروتها عند نهاية المقطع.

لا أعرف كم طال ذلك، لكني انتهيت وآنجيلا تمسح بأناملها الحريرية دمعة منسابة من عيني اليسرى، تلك العين التي فقدت البصر قبل مدة ولكنها لم تفقد بعد قدرتها على إسبال الدمع، كانت آنجيلا تمسح الدمع بالتناوب بين عيني وعينها، وهمست في أذني: لم أفهم كلمة مما تقول لكني لم أسمع صوتا بهذه العذوبة في حياتي.

استأذنتني أن تعيد الأغنية، على أن أترجم لها مضامين الكلمات وأعرفها أكثر على الفنانة ديمي بنت آبه، شرحت لها ما أمكن من مضامين الكلمات وسياقاتها الثقافية واللغوية، ثم أسندت رأسها إلى وسادتي مشاركة إياي الاستماع إلى الأغنية للمرة الثالثة، متجاهلة واجب التحفظ المهني، وتجاهلت أنا بدوري كل ما حولي وفعَّلت خاصية الإزاحة الشعورية، فكنت أستمع إلى تردد أنفاسها الحَرَّى يوقظ ذلك الشعور العميق بالألفة؛ وكأنها أنت على شاطئ المحيط الأطلسي ليلة كنا نراقب الصراع بين أمواجه وبين حركة السحب

المتناثرة فكلما تراجع الجزر زحفت السحب مستعجلة، همست في أذنها: هل على شاطئ هذا المحيط بضفتيه من هو أسعد منا؟

فجفلت من اللغة التي استخدمت ولم تستوعب ما قلت.. قبل أن يفاجئها نداء باسمها من مكبر الصوت، فأحد مرضاها ـ غيري ـ يستعجلها.

انطلقت آنجيلا مسرعة ساحبة خلفها سماعات الهاتف بلا روية، وفجأة عم الكون صمت عميق، صمت مطبق ومطلق، كصمت الثانية التي تسبق إعطاء مايسترو إشارة انطلاق جوق سيمفوني، أو كصمتنا حين تلاقت أعيننا آخر مرة وأنا أنزل من سيارتك قرب المطعم الفرنسي الذي تناولنا فيه أول إفطار معا.

دام الأمر عدة ثوانٍ جعلتني أتيقن أن الضربة المقبلة ستستهدف جهاز السمع، قبل أن تتسلل إليَّ نغمة خافتة بالكاد ترصد ذبذبتها، ثم «لا إله إلا الله» فصمت مطبق.

هل يمكن أن يختزل الوطن في أغنية؟

٥

«لم يكن توماس قادرا على إنقاذ المساجين، لكنه كان قادرا على إسعاد تيريزا».

ميلان كونديرا

لم يكن ما فقدت سمعي يا عزيزتي، ربما كان ذلك أجمل لو حدث، فحاجة المرء إلى سمعه تقل كلما توغل في ثنايا الأيام، ولا يقابل الناس خسارة أسماعهم كما يتعاملون مع خسارة أبصارهم.

ولأن أذنا لا تسمع صوتك لا تعدو أن تكون تجويفا بغطاء ناتئ يزين شكل الرأس ويمنحه توازنا بصريا متناسقا.

ما أزال أذكر آخر كلمة سمعتها أذني منك وأنت تضغطين زر رفع زجاج باب سيارتك، كانت حروفها عذبة وأنت تشيحين بنظرك، تتلمسين مغير السرعة وتقولين: **نبقى على تواصل**؛ كان إطباق شفتيك على حرف الباء، ثم مدهما في لفظ الواو، فزمهما مع ضم الصاد مشهدا سينمائيا متكامل العناصر، يستحق لقطة مقربة جدًّا مع حركة بطيئة، ويكون في خلفيته ربع نوتة صول خفيف.

أستعيد تلك الكلمة كلما خشيت على ذاكرتي من التلف، فإذا تذكرتها اطمأننت أني ما زلت بخير.

ربما تكون تلك الكلمة آخر شيء قد أنساه، لم تكن طلبا، ولم تكن قرارا، ولم تكن حتى وعدا، كانت لفظا غامضا يتمايل بين الثلاثة، لم يكن نصا قطعي الدلالة، «**نبقى على تواصل**»، هكذا بصيغة المضارع المستمر، على الأرجح كانت ترجمة فورية من عقلك لعبارة من لغة أخرى.

تختلف معاني الكلمات باختلاف نبرتها، ويقال إن تسعين في المائة من حالات سوء التفاهم تكون ناتجة عن نبرة الصوت، لكن نبرتك كانت محايدة تماما، لم تكن تحمل أي صيغة حتمية، ولا كانت ببرودة المجاملة.

هل بقينا على تواصل بعدها؟!

لا أعرف.

إن عملية التواصل معقدة، لا تشترط اكتمال الدائرة، لا تتطلب توفر طرفي الإرسال والاستقبال ولا تحتم وجود رسالة وقناة، ولا تستلزم رجع صدى.

وإلا كيف يكون قولي لك ضعي يدك على الشاشة أثناء ختام المحادثة الهاتفية، يحمل خصائص شعور تلامس يدينا؟ فتسري من شاشتي ذات النبضة الكهربائية التي ستسري لو حدث أن تلامست يدانا عمدا.

لم نتواصل.. لم ننقطع..

عندما تنعدم أصوات الحياة داخل غرفة مزركشة الجدران بذكرياتك الافتراضية، ويكون الصوت الوحيد المسموع همسا هو صوتك المتقطع في عقلي كمذياع يلتقط إشارة بعيدة، ضحكتك

الرنانة.. هتافك العاتب، غناؤك المزعج، وتكون ابتسامتي وأنا أغمض عيني غارقا في المشهد التمثيلي بلا أدنى ذرة شك أنه واقع.. أليس هذا تواصلا؟

عندما يكتمل عام وأنا أفتح بريدي الإلكتروني سبع مرات في اليوم، مع يقيني أن لا أحد في العالم يعرف ذلك العنوان البريدي غيرك، ثم أفتحه في اليوم السادس والستين بعد المائة الثالثة بالحماس ذاته الذي فتحته به في اليوم الأول، ولم أجد منك فيه رسالة.

وعندما أعيد تشغيل كل الأرقام التي استخدمناها في التواصل مرة كل ثلاثة أيام ولا أجد في أي منها رسالة نصية بمحاولة اتصال، أليس هذا انقطاعا؟

أليس هذا تواصلا؟ ألا يكفي أني أفتتح صباحي يوميا بطقس أمل تصر جذوته على مقاومة الخفوت، ثم لا يزيدها الصد إلا تعلقا بيوم تشع فيه حروف اسمك على شاشة الهاتف المكسورة.

جميل أن ما بقي من بصري ما زال كافيا للتمتع برؤية وجهك ذي الأنف المتسامي، ذي العينين النابضتين بحديث صادق.

والأجمل أن نظام تشغيل الذكريات لا يكترث بمصدر الإدخال، فقد كانت آخر رؤية لك يوم كانت عيناي مبصرتين، وها أنا أتأمل صورتك على شاشة الحاسوب بعين واحدة، فلم يحذف خادم الذاكرة نصفها بفقدان البصر في العين اليسرى.

أشفق على حال تلك العين المسكينة لو كانت لها ذات مستقلة وتدرك أن نظيرتها تتمتع الآن بالنظر إليك منفردة بكل هذا الجمال الطافح!

لقد كانت عين الصمة بن عبد الله القشيري أسبق إلى التعاطف، فأسبلت الدمع حين زجرت أختها، وفي قوله:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

تصوير عكسي بليغ لحالتي على اختلاف في الباعث والمشوق، فهو يبكي لما حال جبل البشر بينه وبين حبيبته، أما أنا فقد عجزت عيني اليسرى عن رؤية صورتك وهي لا تبعد منها إلا سبعة وثلاثين سنتيمترا، ولكن اليمنى تستمتع بأنانية فجة بذلك الحرمان، ولم يكن لديها من التعاطف ما كان ليمنى القشيري.

المصلحات تأتي كرها كما يقال.

لقد كنت أخشى اليوم الذي أكون فيها مضطرا لقول كلمة «أحبك» لا لأني لا أريد قولها، بل لأنها كلمة ممجوجة لاكتها الألسن منذ بدء الخليقة.

وإذا كان عمر بن أبي ربيعة المخزومي أول من تمنى المشيب وهو بعد يافعا في قوله:

فأغث ـ فديتك ـ يا مشيب كرامتي إني سئمت من الشباب العابث

فربما أكون أول عاشق يتمنى الخرس، لأنه عاجز عن خلق مفردة جديدة تضاف إلى قواميس لغة الحب.

تخيلت نفسي أخرس مرات كثيرة، وراودتني كثير من الكوابيس أكون فيها عاجزا عن النطق، بادرت خلال السنوات الماضية إلى تعلم لغة الصم تحسبا لهذا اليوم؛ اليوم الذي يفقدني فيه هذا المرض الخبيث قدرتي على الكلام.

هل سبق أن رأيت لعبة الروليت في أحد مراكز القمار؟

مرضي يشبه تماما تلك العجلة، إنه غير قابل للتنبؤ بموضع التوقف عند الدورة القادمة، تفيد الدراسات الطبية الحديثة حوله أنه يستهدف أساسا خمسة أجزاء من الجسم، البصر والنطق والحركة والذاكرة والأجهزة الحيوية الداخلية، ولكنه يضربها عشوائيا من دون موعد ولا ترتيب محدد، فقد تكون البداية مع أي واحد يتوقف عنده عقرب الروليت الدوار.

لم أكن على علم أني مصاب بهذا المرض قبل أن يفلح الأطباء هنا في الاتفاق عليه، ولكني خلال السنوات الطويلة التي أمضاها صامتا وهو يتمدد بكسل بين تلافيف دماغي كنت أشعر دائما أن هناك مشكلة ستصيب قدرتي على الكلام.

بدأ الأمر عندما لاحظت عجزا متقطعا عن اختيار اللفظ المناسب.

لم أكن يوما عييا، وطالما كنت قادرا على الحديث بطلاقة لمدة طويلة، ولكن خلال السنوات الماضية كانت تنتابني بين الحين والآخر حالة إرباك لغوي، أقول كلمة لا أقصدها، ولا أشعر أني فعلت ذلك إلا من رد فعل المتلقي، تماما كما صاحبك العاجز عن قول أحبك ويجد نفسه يلفظها «كيف حالك».

في حالته لن تكون للأمر تبعات، صحيح أن صاحبته لن تفهم أبدا أنه يقصد «أحبك» وليس السؤال عن حالها، لأن التواضع البشري منح لكل مفردة دلالة قريبة من القطعية لدى متحدثي اللغة الواحدة، وهذا أقصى وأقسى ما في الأمر.

أما في حالتي فكانت المواقف أكثر إيذاء.

أولها كان حين ناديتك باسم غير اسمك ونحن على الشاطئ، ولم أنتبه لذلك إلا حين تغيرت ملامح وجهك تماما، ولا يخالجني شك أنك خلقت لذلك الانزلاق اللفظي السخيف عشرات التفسيرات الجامحة، رغم أنك بدوت أقرب إلى الاقتناع حين أخبرتك أن السبب في ذلك قرب مأخذ الاسم الذي ناديتك به، وكونه كان آخر شخص حدثته هاتفيا أثناء لقائنا، لكن استعجالك إنهاء اللقاء حينها كان كافيا لتأكيد أن مبرري لم يكن في غاية الإقناع.

حدث أن أردت تهنئة صديق بعيد ميلاده، فقلت: «البقية في حياتك» بدلا من «أتمنى لك حياة مديدة»، ولم أستطع إقناعه بأنها خيانة لفظ، أو زلة لسان، وقرر إنهاء الحفلة وعدم قبول الهدية، وخرج متشائما من لفظ سخيف، لكنه مشحون في ذاكرته بحمولة تتنافى مع جو الاستمتاع بانتزاع سنة جديدة بين أنياب الزمن الرديء.

عشرات المواقف الأخرى تراوح الخطأ فيها بين استبدال كلمة بأخرى، وبين العجز عن إيجاد الكلمة المناسبة.

ولد ذلك حالة من الانطواء وانعدام الرغبة في اعتلاء المنابر والمنصات الخطابية، والتقوقع التواصلي واقتصار الكلام على الضرورة القصوى، وتسرب المخزون المعرفي للغات الأربع التي كنت أتقنها، وفقدت ما كان مكتسبا منها، ولم تبق لي إلا اللغة العربية وما يتطلب التواصل الإجباري باللغات الأخرى عند الحاجة.

وها أنا اليوم أخسر الركيزة الثانية من ركائز التطور البشري بعد خسارتي غريزة الخوف.

من حسن حظي أني فقدت الأخيرة قبل الأولى، ربما لو فقدت النطق قبل فقدان الخوف لكان الأمر أكثر إيلاما.

خلال الأسابيع الماضية، وتحسبا لهذا الحدث الذي تحتمه إحصائيات المصابين بالمرض، كثف إخصائيو مختبر الأعصاب الصوتية جلسات تسجيل صوتي، قرأت عشرات النصوص بنبرات مختلفة، سجلت جميع الاحتمالات الممكنة لمخارج الحروف، كانت جلسات مملة جدًّا، ولكنها ضرورية لمواءمة جهاز النطق الإلكتروني المرتقب مع صوتي في حالات المزاج المختلفة.

أفلح المهندسون وخبراء الأعصاب في تصميم برنامج ناطق، ركب على جهاز صغير بحجم علبة السجائر يمتد منها سلكان يثبتان بمقابس على الصدغين، ويوفران تواصلا كهربائيا بين المخ والجهاز الإلكتروني المزود بمكبر صوت قابل للتحكم في رفع النبرة وخفضها، وتتطابق نبرته معي بنسبة تقارب التسعين في المائة، وقادر على التنبؤ باللفظ الذي أريد قوله بنسبة تقارب الثمانين في المائة، خلال مرحلة التجريب، ويؤكدون أنه مزود بخوارزمية للتعلم الذاتي وأن نسبة التطابق ستتحسن مع كثافة الاستخدام.

يحتاج الجهاز الصغير شحنا كهربائيا مدة ساعتين ويوفر قدرة على الكلام مدة سبعة أيام بمتوسط عشرين ألف كلمة في اليوم.

لقد جربته اليوم خلال الزيارة الدورية للفريق الطبي، وخلال محادثة متوسطة مع فيث، لم يكن سيئا، واجه صعوبة أول الأمر، فأصدر الصوت باللغة العربية، ربما لأني كنت أفكر بها قبل الحديث، ولكنه تحسن لاحقا حين استمر الحديث دقيقتين واعتمدت التفكير

باللغة المشتركة بيننا، ولكنه كان مقيتا، لم أشعر بالألفة معه؛ كان يمثل التعدي الصارخ على خصوصيتي؛ الصوت صوتي والكلمات المنطوقة صادرة مني، والأفكار الواردة أفكاري، ولكن لم أكن أنا.

ربما لو كان هذا الجهاز خيارا وليس جبرا لكنت أحببته، فيه شاشة صغيرة يظهر عليها نص الكلمة المنطوقة، يمكن للمستمع إليه أن يقرأها بوضوح، وفي زاويته العليا أيقونة لمستوى البطارية، ولكن بجانبها عدد الكلمات التي نطقتها منذ آخر شحن.

نطقت حتى السادسة من مساء اليوم ألفا وسبعمائة وثلاثا وخمسين كلمة منذ بدأت استخدامه، يا لها من ثرثرة!

إذا لم تنظري إليَّ وأنت تستمعين فقد لا تكتشفين أن الصوت صادر من جهاز إلكتروني، ولكن ما متعة الحديث حين لا تكون العيون متقابلة؟

نصحني الأطباء بتكثيف استخدامه، وشجعوني بوضع جهاز تحكم لباب الغرفة بحيث لا تفتح إلا به، وله ثلاث نسخ إحداها عندي وأخرى عند قسم التمريض لفتح الباب عند دخول آنجيلا وفيث أو من ينوب عنهما، والثالث لدى إدارة الطوارئ في المستشفى، وطلبوا مني دوام الحديث حين أكون وحيدا حتى يتعلم الجهاز أكثر وتزيد نسبة التطابق.

ولو ترينني وأنا أستفيض في الحديث معك وحيدا في غرفة مغلقة! كنت أنظر إلى صورتك في شاشة الحاسوب وأحدثك بصوت عالٍ.

حدثتك عن كل شيء تقريبا.. عن طفولتي عن ما تذكرت من

مراهقتي، وما تذكرت من شبابي، عن الشعراء الذين أحبهم عن الكتب التي قرأتها، عن شعوري حين نكون معا، وعن أحلامي المؤجلة، وعن اليوم الذي ستصلك فيه هذه الأسطر وتخيلي لك وأنت تقرئينها بصمت، وأنت تجهشين وتضحكين.

لقد أبررت قسمي حين تعهدت لك أن أخبرك كل شيء في الوقت المناسب، لم أخف عنك أي شيء، كنت أتحدث بكامل الصدق، كان أقرب إلى حديث النفس، ولا أصدق من ذلك.. لن تستطيع قوة في الأرض إقناعي أني لم أكن أحدثك، أنك لم تكوني جالسة هنا، أن صورتك المتلألئة على الشاشة لم تكن تتفاعل مع كل كلمة نطقتها هذه العلبة نيابة عني.

كنت أنظر إلى عداد الكلمات وهو يحسب بتسارع عدد الكلمات التي ينطق، حتى إنه أثناء المحادثة قال رقم الكلمات لأني فكرت فيه أثناء حديثي معك، لكنه لم يضحك.

ضحكت أنا.. ضحكت من قلبي حين رأيت عجز هذا الجهاز الصغير عن هزيمتي، كنت مستسلما لقدري، راضيا أن أسمع صوت قطعة من الأسلاك ورقاقات السيليكون تعتمد على بطارية ليثيوم صغيرة، وهي تتباهى بقدرتها على قراءة أفكاري، والحديث نيابة عني.. لكنها عجزت عن الضحك..

لقد انتصرت عليها.. ضحكت غصبا عن الآلة.. وحقق إنساني نصره.

٦

«الجزء المرئي من الكائن البشري هو الجزء الميت».

كولن ولسون

لم أر عاشقين أقل رومانسية منا ـ على افتراض أنك عاشقة ـ كنا على مذهب صاحب الجدارية من دون أن ندرك ذلك، نتوارى خلف النقاشات السياسية العقيمة تضييقا لمساحة الصمت، نمضي الساعات الطويلة ليلا على اختلاف خطوط الطول بين مكانينا ونحن نتحدث عن عشاق آخرين، عن قيس الرقيات وجميل بثينة وعن عبقرية المتنبي إذا تغزل، وعفاف عمر بن أبي ربيعة، نحاكم شعراء لم تصلنا عنهم إلا قصاصات غير يقينية تناقلتها ألسنة الرواة، ونتجنب الحديث عن عشقنا.

أوجدنا حلولا مبتكرة لمشاكل مَن استشارنا في أزمته العاطفية، ولكن لم نطرح يوما مشكلتنا الخاصة.

هل كنت تتعمدين ذلك؟

هل كنت تقولين «أحبك» عبر نقاش الانتخابات؟

هل كان إهدائي لك الكتب عوضا عن الورود تورية عاطفية، وهل تلقيتِها كما تلقت صاحبتك «كيف حالك؟»، أم فهمتها كما يفترض أن تكون.

هل كان هذا خطأ؟

ألم يكن حبنا ليفقد قداسته لو نزلنا به إلى درك الشهوة؟

هل كنت ستبقين عالقة في ذاكرتي كما أنت الآن لو كان لقاؤنا الأول في غرفة فندق محكمة الإغلاق، وليس في متحف؟

هل كنت ستستمرين في هذا الوضع الملتبس الذي أمضينا فيه ما أمضينا من زمننا المشترك ـ وأفترض أنه لازمك زمنا طويلا بعد ذلك ـ لو كان أول طلب لي منك جسديا؟

ولكن لماذا نخاف من أجسادنا، لم نخاف من الجانب الحيواني في بشريتنا، وننظر إليه باشمئزاز؟

دعيني أعترف لك ـ حتى ولو كان ذلك متأخرا ـ لقد كنت أخاف أن أفقد منك شيئا، إن الأحلام تكسب جمالها من انتظارها، فإذا تحققت لا تعدو أن تصير ذكرى عابرة، لقد أردتك هكذا، أقرب من الفقد، أبعد من المتناول، أحببتك لوحة انطباعية تخسر جمالها حين تحلل، مغزى رواية يفقد بريقه حين يشرحه المؤلف، مصدر أمان يخالط الشك صاحبه حين التحقق، صورة شمسية قبل التحميض، كتابا أنيق الغلاف في الرف الأعلى من مدى البصر، هل كنت على حق في ذلك؟

الجميل أني لا أنتظر منك جوابا.

قبل عام كانت لي جلسات مع طبيب نفسي، كان ينتابني اكتئاب تبين لاحقا أنه عرض ملازم لهذا المرض.

خلال الجلسات التسع الممتدة أربعمائة وخمس دقائق، لم يفلح

ذلك الإخصائي في تشخيص يقيني لحالتي، وأفضل ما خمنه أن تكون حالة من الاكتئاب الوجودي غير قابلة للشفاء.

كان متأكدا أني سأنتحر، لأن الأسئلة التي كنت أطرحها بدأت كلها بـ«لماذا؟» أو «وماذا بعد؟»، كنت أستفز عقله بالأسئلة، وامتعض خلال الجلسة الأولى محاولا تقمص دور صاحب الحق الحصري في السؤال، وأن عليَّ الإجابة.

وحين حدثته بمنطق عصره استسلم كجرو خائف، كانت حجتي أني أدفع له مبلغا معتبرا مقابل خمس وأربعين دقيقة من وقته، فإن كان لا يعجبه ذلك فلا مشكلة لديَّ.

كنت آتي إلى الجلسات الأخرى بنازع الفضول لا أكثر.

بذل الرجل جهدا مضنيا لانتزاع اعتراف متوهم مني يلائم ما درسه في أقسام علم النفس، حاول استثارة ذكريات طفولتي معتقدا أني أحمل منها صدمة باقية الأثر، فكك أجوبتي إلى كلمات متناثرة محاولا ربطها بإعادة التركيب، استفسر عن وضعي المادي والعاطفي، لم يكن في أجوبتي لكل ما خطر على باله شيء يوائم نظرياته المعلبة.

وخلال الجلسة الأخيرة كان منصتا كتلميذ في محاضرة لا يتقن لغتها، أخبرته أن نقطة ضعفه كانت في افتراضاته المسبقة، وتركيزه على جسدي أكثر من نفسي، كان يتأمل وجهي عند كل جواب ليرصد حركة عيني ظانا أنه سيكتشف فيهما إن كنت كاذبا أو صادقا، و غاب عنه أن تلك الحيل متجاوزة.

طلب مني أن أتصل به أسبوعيا لطمأنته وأن لا أتردد في الاتصال بالطوارئ إذا شعرت برغبة حقيقية في الانتحار.

عجز ذلك الإخصائي المبرز في علم النفس عن كشف أن تلك الرغبة لم تغب عني يوما، ولكني لم أعثر حينها على وسيلة الموت الأنيقة التي تلائمني.

لقد كنت أبحث عن موت بقيمة الحياة التي عشتها، صرت خبيرا في كل نظريات الانتحار، وأعرف كم يحتاج شاب مثلي من ثوانٍ ليفارق الحياة قبل تدخل إسعاف أو فقد الرغبة.

درست كل إمكانية على حدة، وحللت الدوافع ورتبتها في سلم تصاعدي، ودققت الموانع وفرزت ما كان منها عضويا كآلية الدفاع الذاتي في الجهاز العصبي التي تمنع أي شخص من قتل نفسه من خلال الامتناع عن التنفس، وما كان غيبيا كالخوف من تبعات الانتحار بعد نجاحه، وما كان منها فطريا كالخوف من الموت في حد ذاته.

ولكن الاستشاري النفسي لم يستطع خلال ما يقارب سبع ساعات من المحادثة أن يكشف شيئا مما تعمدت إخفاءه، لسبب بسيط وهو أنه يعامل البشر وحدة متجانسة تحمل الخصائص ذاتها وتسير وفق سببية قابلة للقياس الكمي.

ليست دراسة الإنسان مما يثير اهتمامي، ولكني على يقين أن العلم البشري؛ أي علم لن يكون قادرا على إجابة أسئلة عالقة بين الرغبة والتجاهل، ولن يفكك خريطة متاهة المشاعر التي أدخلها كلما رفعت بصري قليلا عن الملف الذي أكتب، واستقر نظري على تلك الصورة ذات الخلفية المزدحمة بآحاد من البشر يتدافعون خلفنا إلى منصة

تسلم الأطعمة وأنت بنظرتك الحائرة بين يدي التي تحمل الكاميرا ويدك التي تتوجسين أن تفقدي السيطرة عليها فتضيع أصابعها في الفراغات المتناسقة بين أصابعي.

إن قولبة المفاهيم وتعميمها تناقض طبيعة النفس البشرية، فلو كانت الأمور بهذه البساطة لما كان لي أن أفقد معنى الحياة، لما كانت الخطوات بين غرفة النوم والحمام كالمسافة الفاصلة بيننا، لما كانت الدقائق التي أقضيها أمام المرآة لتنظيف أسناني كأنها عمر من القطيعة، لما كانت الغفوة بين المنبهين بجمال نظرتك الكسلى، ولما كانت السنتيمترات الخمسة عشر المشكلة لعمق باب البيت كأنها باب سور الأعراف.

يتوقع الأطباء النفسيون أن أي اكتئاب لا يخلو من دافع وقد يكون ذلك قريبا من الحقيقة، ولكن ذلك الدافع قد لا يكون كما يعتقدون.

أعجبني في كلير صبرها الجميل على صمتي، وقدرتها الفائقة على تجنب إصدار الأحكام، جاءتني لتجمل الموت ولكن جاءت متأخرة، أو أنا المتأخر، فحين وصلت إلى هذا المستشفى كنت فاقدا لغريزة الخوف، ولم تعد غريزة البقاء ذات فاعلية كبيرة، ولكني أيضا لا أكره الحياة، أو لم أعد أكرهها حين صار بإمكاني أن أتحكم في الإزاحة الشعورية لأعيش مع كلير خمسا وأربعين دقيقة كل أسبوع على أنها أنت.

لم تعد كلير تريد إقناعي بجمال الموت ولا تحفل تصوراتها عما بعده بحوافز مشجعة، لقد باتت تريدني أن أعيش ما بقي من الحياة

سعيدا، وبمعرفتها أن أسعد لحظات حياتي حين أكون معك، لم تعد تهتم بتوجيه الحديث.

صار اللقاء يمر عفوا، تارة نتجول في الحديقة ممسكة يدي وهي تسندني برفق مجارية سرعتي في المشي على رجل واحدة، وتارة نجلس قرب النافورة الصقرية القبيحة مدة ساعة لا نتبادل سوى الابتسام، ولا يربطنا إلا خيط سماعة هاتفها الذي نتشاركه، نضع مقطوعة موسيقية كلاسيكية طويلة من ذوقها الراقي.

عرفتني إلى فيفالدي؛ وحسب المزاج نختار أي فصل نريد أن نكون فيه.

اختلفنا ـ وهذا متوقع ـ في تحديد الفصل الأجمل؛ فهي ترى الربيع أجمل الفصول وسيدها، ولذلك تريد أن نستمع إليه حين أكون سعيدا، ولكني لم أوافق وشرحت لها أنها أحبت موسيقى فصل الربيع لأن ذلك ما ارتبط في ذهنها أنه الأجمل، وأنه وداع مبهج لكآبة الشتاء، ولكني لست مثلها.

أنا لا أعرف الربيع إطلاقا، أو لم أعرف الربيع أيام تشكل ذائقتي الجمالية، وأجمل الفصول عندي هو الخريف بحكم الموقع الجغرافي الذي لقنت فيه مبادئ الجمال، وينافسه في الجمال الشتاء.

وكان يدور بيننا جدل جميل يزينه مرحها وانفتاحها، وكوني أعيش معها تلك المشاكسة الذوقية لا بدافع الإقناع أو امتلاك الحق، وإنما بدافع أن تفتح عينيها على سعتهما وتفتح فمها باندهاش، وتغور نقطتان صغيرتان تحت وجنتيها فتكون كأنها أنت حقا وليس اختلاقا.

لم نتفق أيضا على فصل الصيف، فهي تراه ثاني أجمل الفصول بعد الربيع، وأن فيفالدي عزفه بهدوء واسترخاء يناسب ما لهذا الفصل من نوازع الراحة والخلود إلى الدنيا، والتغافل عما يحيط بهذا الكون من عوارض الهلاك.

ولكني رأيتها مقطوعة باردة لا تليق بفصل المآسي، وأقبح فصول السنة على الإطلاق، ومرة أخرى لم تقل كلير ما يشي بأني على خطأ.

اكتفت اليوم بإسناد رأسي إلى كتفها حين لاحظت وهنًا ينتابني، واقتصرت جولتنا الصباحية على جلسة قصيرة في الحديقة استمعنا فيها إلى المقطوعة ولم نتحدث في أي شيء، ثم أسندتني وقوفا، وطلبت كرسيا متحركا من أحد العمال، ودفعته برفق كأنها ترقص سالسا على موسيقى هادئة، وتركت هاتفها على حجري وموسيقى فيفالدي الصيفية تستكمل آخر مقاطعها.

هل يمكن أن أكون قد أحببت كلير من دون أن أنتبه؟

وهل الحب فعل واعٍ؟

٧

إذا قيل تقريك السلام تماسكت حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب
العباس بن الأحنف

تعرفين تلك الأيام التي تبدأ بالصحو متأخرة بعد ليلة أرق، تكتشفين أن ما في سيارتك من الوقود لا يكفي لإيصالك إلى وجهتك، تكون الإشارة الأولى في طريقك حمراء، وكذلك الثانية، وتلحقين الثالثة على وشك الاحمرار ثم تحمر الرابعة قبل وصولك إليها بمترين، ويكون الازدحام على محطة الوقود في أوجه، وحين تصلين إلى المكتب متأخرة عشرين دقيقة عن الاجتماع، وأثناء جمع الأوراق وترتيبها تصدمين عن غير قصد فنجان القهوة فينسكب على الملف الأهم، تحاولين طباعته من جديد فتجدين الطابعة خالية من الأوراق، تنادين العامل المسكين لجلبها فيتأخر عنك ثلاث دقائق، ثم يقول لك بابتسام: هل كان مستوى السكر في قهوتك مناسبا؟

أظن أني واجهت أحدها اليوم.

اقتحمت آنجيلا الغرفة صباحا بابتسامتها المغرية بالتفاؤل، كانت مشرقة كما لم تكن من قبل، حدثتني عن غيابها طيلة أسبوع، وأنها كانت في إجازة قصيرة زارت فيها بعض الشواطئ والملاهي الليلية وتعرفت فيها إلى صديق جديد، وتتمنى أن يكون مختلفا عن سابقيه،

واقترحت عليَّ أن أجرب أحد تطبيقات المواعدة، فربما أتعرف إلى فتاة تعجبني، أو على الأقل أجد سلوى في تنوع المعروض من البضاعة البشرية، وكانت تحاول جاهدة إقناعي أن تطبيقات المواعدة لا تختلف عن أي شبكة اجتماعية أخرى على الإنترنت ولا يعني استخدامها أني أبحث عن مومسات، أو أن من فيها من النساء مجرد بائعات هوى.

كانت تستعرض لي صورها في التطبيق ومحادثاتها مع أشخاص تعرفت إليهم ولم تعجبها محادثاتها معهم، وكنت أتميز غيظا، ولولا عجزي الجسدي واللفظي لكنت لكمتها على خدها، أو صرخت في وجهها صرخة تهتز لها أركان المستشفى، لكني أخرس ومشلول النصف الأيسر، وجهاز النطق الغبي فقد الشحن أمس وأنا أتحدث إليك على انفراد، ونسيت أمره.

قبل سنوات من استفحال المرض التقيت مرة أحد المدعين علم الفراسة، قلت له مازحا: ما تقرأ في وجهي من نظرة واحدة؟

قال: لديك قدرة هائلة على التحمل.

لم أستبن قصده ولم أعر رأيه اهتماما، أذكر أني رددت مبتسما: وهل يمكن لغير ذوي القدرة الهائلة على التحمل العيش في هذا العالم المليء بالتفاهة؟

لم يفهم قصدي، ونسيت أمره تماما.

في لحظات الهشاشة البشرية تميل الأنفس ـ حتى القوية منها ـ إلى التعلق بأي شيء لتفسير ما تعجز عن إدراكه.

أعرف أشخاصا يتشاءمون من القطط السوداء، ومن اللون الأحمر مساء، ومن لبس النساء للبياض ليلا، ويتفاءلون بالحليب وبالجمال، وقرأت مرة دراسة تقول إن رؤية الجمال تحفز الدماغ على الإبداع، فهو يربطها بالخير والنفع.

ربما يكون ذلك ما دفع دماغي إلى الحياة كل هذه المدة، لأني أتأمل صورتك كل يوم.

لا أعتقد أن ذلك الرجل كان صادقا، لقد تحملت كثيرا ولم أعد قادرا على تحمل مزيد مما أنا فيه.

لم أعد قادرا على تحمل مرور مدة أخرى في هذا الصمت المجنح كصقر كاسر على حياتي، إن الأيام في غياب صوتك شبيهة بحياة البرزخ، وساعة لا أرى فيها ابتسامتك كساعة من يوم الحشر.

لقد أمضيت معظم الصباح قبل موعد زيارة كلير وأنا أحاول اكتشاف وقت التقاط الصورة، لم أدخر حيلة لتوضيحها من التصغير إلى التكبير إلى التعديل، لكن انعكاس الإضاءة على زجاج ساعتك حرمني من ذلك.

كنت حتى هذه اللحظات أحسد مكتشف التصوير لتفكيره في حبس لحظة من الزمن، لكني شكرت الإضاءة المنعكسة على ساعتك؛ فقد منحتني ما هو أكثر من ذلك، وجعلت هذه اللحظة السعيدة الوحيدة التي ما زلت أحتفظ بصورتها تمتد إلى الأبد، فربما لو كان الوقت في الساعة واضحا لحظة التقاط الصورة لكنت اعتبرته موعدا يوميا مع السعادة، وربما جعلته الموعد الذي تبدأ فيه الحياة، وقد أنسى يوما ما التوقف عند تلك الدقيقة فأشعر بالخسارة، لكن

هذه الضبابية الضوئية منحتني فرصة جعل أي لحظة أنظر فيها إلى صورتك لحظة سعادة غامرة، وألغت الاصطفاف التسلسلي للزمن، وصارت كل لحظة تفكير فيك فسحة استعلاء على الغباء البشري، وكسرا لأسطورة الوقت.

لقد خابت التوقعات المتفائلة لإخصائي الأعصاب والعلاج الطبيعي، فالشلل في رجلي اليسرى سيكون دائما، ولن أكون قادرا على جرها بوهن كما كنت أفعل خلال النزهات مع كلير، وعليَّ الترحيب بالعضو الجديد في جسمي؛ عكاز يناسب قامتي، في انتظار اكتمال تصميم غلاف اصطناعي للرجل مزود بمجسات إلكترونية تتولى مهمة الأعصاب التالفة احتجاجا على أوامر القيادة العليا.

رفضت كلير أن أستخدم العكاز في نزهة اليوم، وأصرت أن أجلس على الكرسي المتحرك، على أن تكون جلستنا في مقهى المستشفى وليس في الحديقة نظرا لارتفاع درجة الحرارة، والتي ـ يا للغرابة! ـ باتت أحد ألد أعدائي، بعدما أمضيت نصف عمري لم أسمع كلمة كهرباء، وكانت الشمس رفيقي لأكثر من أربع عشرة ساعة في اليوم.

سألها جهاز النطق الغبي فجأة: هل تحبين أن تكون لديك قدرة على معرفة المستقبل؟

شُدِهت، وارتبكت وأنا أبحث عن زر إغلاقه، فصحيح أن السؤال كان يراودني وكنت أتحين الظرف المناسب لخوض محادثة، وليس قطعا لحظة أتحامل فيها بكامل ثقلي على كتف امرأة لا أعرف سوى اسمها، ولكن هذا أخف العواقب حين يمنح الإنسان الآلة سلطة

اتخاذ قرارات أخلاقية، ويتنازل لها عن حق وجودي كالتحدث نيابة عنه.

لاحظت كلير حالة الارتباك وردت مبتسمة: عندما نجلس سأخبرك.

منحتها المسافة بين غرفتي ومقهى المستشفى مهلة كافية للتفكير في الإجابة، وربما انشغل ذهنها بما هو أهم من سؤال جهاز نطق إلكتروني.

حين وصلنا المقهى اختارت زاوية هادئة وأزاحت كرسيا كانت تفصل بينه وبين صاحبه طاولة بعرض ثمانين سنتيمترا، وكان وضعه متمنكبا، كأنه عاشقة تتغنج بدلع لتوهم عشيقها أنها غاضبة، ثم ثبتت عجلات كرسيي المتحرك، وطلبت من النادلة ماء وقهوة وأصرت أن تدفع لها الحساب بدلا من إضافته إلى حساب غرفتي.

كنت أنتهز الفرصة العظيمة التي حصلت عليها بتعطيل جهاز النطق وزاحمت كثيرا من الأفكار في عقلي على غير ترتيب كطفل مشاغب ينتهز فرصة خروج معلم من الحجرة ليصرخ ويقفز بلا هدف.

وعندما اعتدلت كلير في جلستها، ابتسمت وقالت: آن الأوان لتشغيل الجهاز، فلم أتى بك إلى هنا لأتحدث وحدي.

وفور تشغيله قال: كنت سألتك..

فبادرت بالإجابة قبل اكتمال سؤاله قائلة: أي نوع من المعرفة تقصد، وأي مدى مستقبلي؟

كان واضحا أنها تلبس رداء الطبيبة الآن وليس تنورة شابة قطعت نصف المسافة نحو الأربعين.

لنقل: معرفة ما سيحدث خلال الدقيقة المقبلة، هكذا خاطبتها وأنا أنظر في مسافة السنتيمترين الفاصلة بين حاجبيها المقوسين على غير اتساق.

أعتقد أن دقيقة مدة قصيرة لا تفيد معرفة ما فيها المستقبل بشيء، وماذا عنك؟ قالتها بنبرة المتهرب من السؤال.

قلت: لو كانت لديك هذه الميزة لكنت عرفت جوابي، فلا شك أني سأقوله خلال الدقيقة التالية لسؤالك، إن دقيقة مدة طويلة جدًّا، ففيها تستطيعين قول مائتي كلمة على الأقل، ويمكنك قراءة ضعفها.

أووه لم أنظر أبدا إلى الزمن بهذا التدقيق، ولكن ما قيمة معرفتنا بالمستقبل إن كنا غير قادرين على تغييره؟ رمت السؤال إليَّ باستطراد:

ـ لو أتيحت لك فرصة تغيير الماضي، ما الذي كنت ستغيرين؟

ـ خطيبي!

لم أدعها تكمل الجملة، وتسللت يدي خفية إلى زر إغلاق جهاز النطق لإيقافه، فلطالما كرهت النساء اللائي يقحمن عبارة زوجي وخطيبي في المحادثة من دون أي مبرر.

فكرت في ذلك وخشيت أن ينطقه الجهاز، ثم فتحت مبادرا بالقول:

ـ ماله خطيبك؟

ـ ربما لو أتيحت لي فرصة تغيير الماضي لمنعته من الرحلة التي تعرض فيها لحادث سير تسبب بوفاته.

ـ أوه هذا مؤثر، آسف لسماع ذلك، لم أكن أقصد بسؤالي إثارة ذكرى حزينة.

قلتها وأنا أراقب عينيها تذبلان، وتتسارع حركات جفنيهما، ويتحول مركز رؤيتهما إلى بقعة باهتة من الجدار الواقع خلفي، بزاوية مائة وخمس عشرة درجة عن مركز وجهي.

ـ لا عليك، إنها لحظة صدق، لم يسبق أن طرح عليَّ هذا السؤال وكانت هذه أول إجابة تخطر على بالي.. وماذا تود أن تحذف من ماضيك؟

ـ زواج أبي وأمي.

ـ لماذا؟!

قالتها بدهشة جعلتها تعيدك إلى الذاكرة، وتدخلني في حالة ندم عميق عن الإجابة.

ـ لو لم يتزوجا لما كنت ولدت.

لم تكن تلك إجابتي الصادقة بعدما تذكرتك، فربما لو لم أولد لما أتيحت لي فرصة لقائك، ولكن لم يكن لديَّ بد من استكمال ما بدأ بصدق حتى لو انتهى إلى غيره، وغريب كيف تتحول النفس البشرية في طرفة عين من أقصى المواقف إلى نقيضها.

أدركت كلير فورا اختلاف ملامحي مع أن نبرة الجهاز واحدة، فابتسمت وقالت: لو لم تولد لما كان لنا أن نجلس هنا ونتحدث، وكنت سأندم كثيرا على ذلك.

لم أعد أعرف حقا إن كانت كلير تتعمد التشبه بك إلى درجة

التطابق، وتفعل ذلك لمجاراتي في هلوستي الواعية، أم أنها تقصد ما قالت بصفتها كلير الأنثى، وليس كلير إخصائية علم النفس الإيجابي، أم هو تصرف مهني محض تمليه عليها أخلاقيات المعاملة بين طبيب ومريضه.

نظرت إلى ساعتها وقالت علينا العودة إلى غرفتك، لديَّ اليوم مشاغل كثيرة.

لم تكن دقائقي الخمس والأربعون قد اكتملت، ولكن الجهاز قد انطفأ ولم أجد رغبة في إعادة تشغيله.

٨

«الفائدة الوحيدة للذاكرة تكمن في مساعدتنا على الندم».

إميل سيوران

مر أسبوع لم أكتب لك شيئا ـ أقول مر أسبوع وكأن ذلك يشكل فرقا ـ هل سيكون مهما أن تعرفي تاريخ كتابة كل فقرة من هذا النص؟ إن وصلك.

أيام الصور الورقية كنت أكره تلك العادة السيئة لدى كثير من المصورين، إذ يطبعون تاريخ الصورة على زاويتها السفلى، كان ذلك يحرمني من اختلاق تاريخ يناسب الذكرى أو الموقف، فمعظم التواريخ المصرح بها ليست ذات صلة بالواقع، فلا أعرف ـ مثلا ـ تاريخ ميلادي على وجه الدقة.

وخلال الأسبوع الماضي أقام قسم العناية التلطيفية حفل عيد ميلاد صغيرًا بناء على التاريخ المسجل في الوثائق الرسمية، وقد جاريتهم في الاحتفال، وشعرت في بعض لحظاته أني منافق وانتهازي، فقد أطفأت شمعة الكعك بنصف نفخة مجهدة، بعدما قربتها آنجيلا مني، وقالت لي أن أتمنى.

كنت أسايرها في اللعبة السخيفة، وأنا أكثر من يدرك أن الأماني أوهام يتسلى بها المخ وقت فراغه.

قبلت هدية من كلير عبارة عن قارئ موسيقى محمل بكل سونيتات بيتهوفن، وكدت أسر إليها وهي تترك بعض آثار مكياجها على خدي الأيسر المشلول أن هذا الاحتفال زائف، ولكن من يستطيع مقاومة السعادة؟

لم يكن الزيف مقتصرا على الاحتفال بعيد ميلاد وهمي فقط، بل يشمل الاحتفال ذاته وطقوسه، فلو لم أكن شخصا يملك ما يؤهله للإقامة في هذا الفندق الاستشفائي لمر هذا اليوم كسائر الأيام الأخرى.

ولو كانت حفلات أعياد الميلاد تقام لكل من في المستشفى لما وجد الطاقم وقتا لعلاج المرضى، فقد استغرقت قرابة عشرين دقيقة، ختمت بإحاطتهم بسريري مصطفين لأخذ صورة جماعية ولكني رفضت ذلك، وطلبت منهم أن لا نخلد هذه الذكرى الحزينة؛ وادعيت أني ما زلت موقنا بالشفاء يوما ما، ولا أريد أن تبقى صورة شاهدة على حياتي بنصف جسم مشلول وجهاز نطق إلكتروني غبي.

وقد احترموا لي تلك الرغبة، والحقيقة أن «يوما ما ليس من أيام السنة» وأن دافعي لذلك هو حرمانهم من استغلال صورتي في ترويج إنسانية كاذبة من خلال نشرها على شبكات التواصل الاجتماعي، وربما تصل إليك بطريقة ما؛ فخوارزميات تلك الشبكات تعرف عني وعنك أكثر مما نعرف عن أنفسنا، وربما يأتيك الخبر المزلزل في صيغة: «هذا شخص قد تعرفينه».

في مساء يوم الحفل قدمت لي فيث هدية في مغلف طلبت أن

أفتحه، فإذا فيه رزنامة في شكل مذكرة تحمل كل صفحة منها تاريخ أحد الأيام وصورة لأحد أعلام الفن مع سطرين للتذكير بأهم أعماله، ومع الرزنامة قلم أنيق جدًّا جاف الحبر، وطلبت مني أن أكتب في كل يوم كلمة واحدة تعبر عن حالتي في ختامه، لم أشأ أن أخيب أملها فوافقت.

لمعت في ذهني ذكرى بهذا المشهد لموقف حدث بيننا ولكن لم تسعفني الذاكرة بتفاصيله، أمضيت وقتا أتصفح المذكرة محاولا استعادة الذكرى وعبثا ضاع وقتي، واستخلصت أن طلبها لا يقل زيفا وغباء عن الاحتفال ذاته، فلا توجد كلمة تعبر عن ساعة واحدة أحرى يوم كامل، أي كلمة تستطيع التعبير عن يوم يبدأ بافتقادك وينتصف بمعاناة الألم، ويختم بالعجز عن زجر علبة إلكترونية ناطقة عن قول أحبك لصورة ملصقة على ثلث شاشة حاسوب؟

هل يمكن أن يكون حبك هو عنصر المقاومة الوحيد لعنجهية الجهاز العصبي المركزي وتسلطه على جسمي؟ وأن تكون هذه الشذرات المتبقية من الذكريات وهذه الرغبة المتنامية في البوح هي جدار الدفاع الأخير؟

أظن المقاومة تأخذ أشكالا كثيرة كلما طغى المتسلط وقويت شوكته، وضاقت على المخذول سبل التحدي.

في أحد بلدان الطغيان العربي المتطاولة في تشييد غابات الإسمنت بغير سواعد أبنائها، لا يسمح القانون بتنظيم مظاهرات احتجاجية ولا بتشكيل نقابات، ويعامل العمال الآسيويون معاملة تقل كثيرا عن معاملة الجماد، أما الحيوان فذلك لا يصل إليه حلمهم،

وفور انتهاء أي برج يمتلئ بذوي الحسابات ثُمانية الأرقام، ولا يبقى فيه أي أثر لمن كد في بنائه، لكن أحد العمال الأذكياء وجد حيلة صغيرة للمقاومة، حتى ولو لم يتنبه إليها المستبد.

كنت مرة في أحد تلك الأبراج، فلفتت انتباهي كلمة صغيرة بلون أزرق على لوحة كبيرة جدًّا تحمل اسم إحدى الشركات متعددة الجنسيات التي تتخذ من المنطقة ملاذا ضريبيا، وبالكاد استطعت قراءة اسم دولة كتب بقلم حبر بخط رديء بيّن الاستعجال، التقطت صورة من اللافتة وسحبتها بحجم كبير، بحيث تظهر الكلمة المكتوبة، وعلقت الصورة على جدار مكتبي، وكنت أعتبرها واحدة من أفضل تقنيات المقاومة في العصر الحديث.

ربما كتب ذلك الشاب الآسيوي اسم دولته شوقا إليها أو عبثا حتى، ولكني رأيتها محاولة لرفض التجاهل، فإذا كان هذا البرج عانق السماء، وامتلأت ردهاته بالمكاتب وصار الدخول إليه حكرا على ذوي ربطات العنق والأغنياء، فإنه حين كان أرضا بورا كانت سواعد ذلك الآسيوي وأقرانه تحفر فيه قيظ النهار وغسق الليل، حتى استوى على أعمدته، ولا أحد يعرف اسم أي من أولئك العمال الذين شيدوه، ولا من أي بلد جاءوا، وحده ذلك الشخص المجهول امتلك الجرأة ليخلد اسم بلده على اللوحة الرئيسية للبرج حتى ولو كان ذلك بكتابة قلم رقيق ستزول آثاره خلال أيام.

أظن أن حبي مثل ذلك الشاب، فمهما كانت قدرة هذا المرض على التهام الغمد الميالييني في جهازي العصبي، ومهما تشوشت الرسائل وتعاظم استبداد المخ على بقية الأعضاء، فإن حبي يصر

على تحديه بالبقاء هنا رغم أنف الغطرسة، ولو من خلال حراسة ذكرياتي معك.

بدأت أميل إلى عدم تصديق العلم في كل شيء؛ لا أنكر أن للعلماء فضلا ـ أو إثما ـ في إبقائي على قيد الحياة حتى الآن، ولولا العلوم الدقيقة لما كان إخصائي الأشعة خبيث النفس المكتئب يعرف بدقة موضع كل عصب في دماغي ووظيفته، وتصدق تنبؤاته في كل مرة ينعق فيها باحتمال تعرض عضو معين للتلف، ولما كانت يدا فيث الناعمتان تجسان بلطف معصمي فتجدان وريدا صغيرا مختبئا برهبة بين كومة شرايين، ولكن هناك أمورًا لم أقتنع برؤية العلم فيها.

كل العالم وموروثه الأدبي والفلسفي واللغوي يرى أن القلب موضع الحب، وكل الأديان على اختلاف مصادرها، وكل اللغات العالمية الحية لم تقتنع بدعوى أن القلب مجرد كتلة عضلية تضخ الدماء إلى أنحاء الجسم، ولذلك أجدني أقرب إلى تكذيب العلم في هذه.

ولديَّ دليل ملموس على ذلك، فالضرر المتنامي في جسمي أتلف كل الجانب الأيسر؛ بدءا بالعين اليسرى، ثم الرجل فالذراع وأخيرا الوجه، وحتى كليتي اليسرى والجانب الأيسر من جهازي الهضمي لم يعودا يعملان بكفاءتهما المعتادة.

وحده القلب من بين كل الأعضاء القابعة في الجزء الأيسر من جسمي لم يتأذَّ، ومنذ توقفت غريزة الخوف عن العمل، لم يعد نبضه يتغير كأنه صورة ثابتة مطبوعة على جهاز الجس، ومع كل صباح

تحاول آنجيلا العثور على اختلاف ولو ضئيل بين منحنيات رسوم تخطيطه فتفشل.

ألا يدل ذلك أن العلم ما زال عاجزا عن فهم الإنسان؟

ألا يؤكد أن احتلالك قلبي حصَّنه من هجمات هذا المرض؟

فليذهب العلم كله إلى الجحيم، ولتبقَ صورتك ترصع قلبي مرفرفة مع كل خفقة.

٩

ما قيمة العطر إن كانت نسائمه تبقى حبيسة أنفاسي وقمصاني

تزعجني تلك التعليقات والملصقات، وحتى المنشورات وشاشات التلفزيون التي توضع في قاعات الانتظار، وتحاول التخفيف عن المنتظرين بإلهائهم في شيء آخر، حتى لا يشعروا بمرور الوقت، فتلك الوسائل الفجة تفسد المتعة.

الانتظار ليس وقتا ضائعا، بل هو الوقت الوحيد المشغول، فإذا نظر إليه شخص على أنه وقت ممل، يتوجب عليه قضاؤه، ضاقت به الدنيا، ومرت كل دقيقة كأنها عمر من الكآبة.

منذ عرفتك وجدت معك متعة الانتظار، صار انتظارك فعلا مقدسا، يحتاج طقوسا تليق بجلالك، حين أتصل وتجيبين الهاتف مع أول رنة، أشعر أني أكلم رقما خاطئا، وأعيد النظر في شاشة الهاتف للتأكد، وفور بدئي الاتصال أدخل في حالة من الاستنفار الشعوري، تتداخل الأفكار المتناقضة في رأسي، ويتحول مركز تفكيري إلى حلبة سباق بين التفكير فيما سأقول لك، وبين توقع ما ستقولين، وتخيل الحالة التي أنت فيها وقت المكالمة، وتصور شعورك وأنت ترين رقمي على الشاشة.

هل تتسلل ابتسامة إلى شفتيك بلا استئذان، أم تبتعد قليلا

حواجبك مفسحة المجال لغمرة فرح، أم تضيق عيناك قليلا وأنت تراقبين الهاتف؟

ترى هل تعتدلين في جلستك بمجرد رؤية رقمي، أم تسندين رأسك إلى أقرب جدار؟

هل يكون حديثنا إلى من نحب كأي حديث عابر مع الغرباء؟

ولأن محادثاتنا في الغالب كانت في الساعات المشتركة من الليل بيننا، فقد كنت أضيء الغرفة بلون وهاج، وأضع أسطوانة عتيقة بها موسيقى هادئة، وأحيانا أرش قليلا من العطر تحت أذني، وأغرق معك في محادثة طويلة لا تكون في الغالب ذات صلة بالأجواء التي أعيشها.

منذ انقطاعك، أبدأ كل يوم بمشهد انتظار مختلف، أفتح البريد الإلكتروني قبل أن أقوم من السرير، ولا أنتظر حتى يكتمل تحميله، أستغرق الوقت الذي أمضيه في التجهيز للخروج في تقليب احتمالات ردك، يمر نصف الساعة الذي أقضيه بين الاستحمام والحلاقة وتنظيف الأسنان وغير ذلك، سريعا، أمني النفس أني سأجد منك رسالة أفتتح بها صباحي، ويزيد ذلك الأملَ أنك كنت آخر ما فكرت فيه قبل النوم.

أتخيل مرة أن الرسالة ستكون من خمسة أسطر، أو أربعة، وأنها ستكون مجرد كلمتين، ومرة أستغرق في اختلاقها رسالة طويلة تشرحين فيها سبب غيابك، وتفسيرك لغيابي، وعتبك اللذيذ، أو غضبك العارم، وما استجد في حياتك من بعدي، وتحدثيني عن بحثك المضني عن صفحاتي على شبكات التواصل الاجتماعي،

وفشلك في العثور على أي أثر لي على شبكة الإنترنت، وأنك ما زلت متمسكة بأمل اللقاء.

وحين غزا المرض ذاكرتي وضعت ملصقات في مختلف أنحاء البيت؛ فوق خزانة الملابس، وقرب منصة الأحذية وعلى جوانب المرايا، وفوق مقود السيارة، وضبطت تذكيرا سبع مرات في اليوم على الهاتف، ينبهني إلى ضرورة تصفح بريدي، ومع كل تصفح أغمض عينيَّ لثوانٍ أتخيل فيها شكل الرسالة التي قد أجدها منك، ثم يخيب ظني عند كل تصفح، فأستغرق وقتا يسيرا في لوم نفسي، ووقتا أطول في إيجاد عذر لك.

لقد قلت لي مرة: لن تتخلص مني بسهولة.

هل كنت على علم مسبق بضعفي، أم كنت واثقة أنك أحكمت الخناق على قلبي، وألقيت أثقل مراسيك على مرافئ ذكرياتي المتقلبة؟

كنت تعرفين ـ أو عرفت ـ خلال زمان أحاديثنا المتقطعة أني سريع التملص من كل ما يرهنني للاستقرار، وأني ملول؛ أمقت الرتابة في الحياة والأشخاص والأماكن، وكنت تدركين أني قد أقلب الصفحة في أي يوم من دون سابق تنبيه، وأني أملك قدرة هائلة على التجاهل، فكيف استطعت رغم كل ذلك احتلال هذه البقعة المتربعة في قلبي؟

أنا الآن سجين جسمي العليل، أقلب نظري في هذا السقف الباهت، منتظرا من يجود عليَّ بحديث بشري ولو كان قصيرا وتافها.

كنت أنتظر وصول آنجيلا، فهي رغم خبرتها المهنية، ودقتها في

أداء ما يوكل إليها من عمل، إلا أنها مرحة، ومتمردة جدًّا على قوانين المستشفى، جاءتني مرة بوجبة قالت إنها اشترتها من مطعم تركي، وهي تعلم أن المستشفى يمنع المرضى من تناول أي طعام مُعد خارج مطبخه، كانت واقفة عند باب الغرفة تراقب حركة الممرات تحسبا لدخول أي شخص من فريق التغذية أو الرقابة.

لم أكن اشتهي اللحم، ولكن تلك اللفتة الإنسانية منها، وتقديرها أن شخصا مثلي يمقت طعام المستشفيات المحسوب بالوحدات الحرارية، سيعجبه أن يتناول شيئا من خارجه، جعلتني أبدي لها امتنانا كبيرا، رغم عجز عضلات فكي عن مواكبة ترقبها الحذر.

لكن لسوء حظي اليوم جاءت فيث في الدوام الصباحي على غير عادتها، وفيث خبيرة في العثور على الأوردة المختبئة، ولطيفة جدًّا وفياضة المشاعر، ربما تقوم بعمل التمريض تكفيرا عن شيء ما، ولكنها أقرب إلى الخرس.

إنها خافتة النبرة، وتتحدث كعذراء تخاطب حماتها في صبيحة عرسها، وتدخل دائما متسللة كمن يأتي فعلا منكرا، تعتبر ثرثارة إذا تحدثت أكثر من عشرين كلمة ـ لقد صرت خبيرا في حساب عدد الكلمات المنطوقة بفعل مراقبتي للجهاز الغبي الذي يتحدث نيابة عني ـ وعلى عكس آنجيلا لم تخض فيث في أي محادثة شخصية عنها، ولا تبدي رغبة في إطالة الحديث، وتنظر كل سبع دقائق إلى ساعتها، كأنها في عجلة من أمرها دائما.

جسديا ليست فيث قادرة على لفت انتباه أي شخص تمر بجانبه، أتوقع أن وزنها في حدود الستين، وملتزمة بالملابس الرسمية

الموحدة، ولا تضع أي حلقات أو زينة فيما يظهر من جسمها، ولولا أنها تأتيني مساء كل يوم لما تذكرت اسمها ولا وجهها.

أما آنجيلا فممتلئة القوام على حسن اتساق، لولا رقة في منخفض ساقها مما يلي الكاحل، وقسوة في كفها جراء التمارين الرياضية، تضع وشم قلب تحت أذنها اليسرى لا يتبينه إلا من صادفها ترفع شعرها الحريري لتشده إلى الخلف، وفي أذنيها قرط دائري كبير جدًّا يمكن أن تخرج منه رصاصة رام محترف من دون أن تلامس جسدها، ولا تزيل السماعات عن أذنها إلا نادرا، وفي حركاتها جموح فرس لم تروض، تتحدث في كل فن تقريبا، وتستهويها الموسيقى الصاخبة، وتدمن مشاهدة أفلام الرعب، ولا ترى حرجا في مشاركة أدق تفاصيل حياتها من أول المحادثة.

ربما هي على يقين أني لن أخرج من هنا، أو أني ضعيف الذاكرة ولن أتذكر اسمها حتى إذا خرجت، وربما وجدت الراحة في الحديث إلى غريب لا يهمها حكمه، وتلك حالة بشرية مألوفة، وقد كنت أعيشها أيام عافيتي.

التقيت مرة حسناء في مطار عربي، أمضينا قرابة تسع ساعات في انتظار رحلتينا، تحدثنا فيها عن أدق تفاصيل الحياة الشخصية لكلينا، وناقشنا مجمل المشاكل، وتناولنا وجبة في مطعم فاخر، واستأجرنا غرفة في فندق المطار لتدخن هي فيها من دون حرج رؤيتها بملابسها التقليدية وهي تحمل سيجارة، وحين أنهت تدخينها غادرنا غرفة الفندق كل إلى وجهته، ولم يسأل أي منا الآخر عن اسمه.

ولن يصدق من رآنا نغادر الفندق أننا لم نزد على حديث فياض،

وأننا لم نلتق قبل تلك الفسحة، ولكن كلا منا منح الآخر فرصة التنفيس بالحديث عن هموم لم يكن لدى أي منا من يستطيع الاستماع إليها من دون إصدار حكم.

منذ ذلك اللقاء صرت أجمع همومي في انتظار أحد أسفاري الكثيرة، واكتسبت عادة الحديث إلى الغرباء، تارة يكون صديقي المؤقت الراكب المجاور لمقعدي، وأخرى يكون مضيفة طيران متفرغة أثناء رحلة طويلة، وخاصة حين يكون ركاب الدرجة الأولى قلة، ومرة يكون غريبا جمعتني وإياه طاولة في مقهى، أو جلسة على مقعد في حديقة عمومية، الشرط الأوحد لمنحه صفة الصديق أن لا يكون بيننا اتصال بعد تلك الجلسة.

ولكن الحياة تغير خرائط طرقها دوريا، وتكثر فيها ملتقيات الطرق، وقد صادف أن التقيت إحدى المضيفات في رحلة لم يكن في مقصورة الدرجة الأولى خلالها غيري، ويبدو أن ذاكرتها البصرية قوية، فعرفتني بعد أعوام وأنا أتجول بين رفوف مكتبة، وتقدمت بلطف واقترحت أن نتشارك جلسة في مقهى المكتبة.

لم تستطع الصبر على صمتي، فذكرتني بلقائنا السابق، فكنت كمن اكتشف فجأة أنه يلبس قميصا مقلوبا وهو يتحدث أمام جمهوره في منصة تسلط كل أضوائها على خشبته. حاولت اقتضاب الحديث قدر الإمكان، وغادرت متعللا بموعد رسمي ورميت بطاقة عناوينها عند أول سلة مهملات، فقد فقدت صفة الغريب.

هل الغرباء آمنُ على أسرارنا من الأصدقاء؟

اليوم خلال انتظاري موعد الفحوص الدورية، كانت سيدة سبعينية

تراقب كرسيي المثبتة عجلاته، كانت الشفقة تقطر من عينيها، وهي تراقب عجزي، عجز شاب كان قبل أشهر قوي البنية أسود الشعر، أبيض المبسم، طليق اللسان، واليوم بالكاد تعثر فالية على شعرة سوداء في لحيته المشذبة، يتجنب الابتسام مخافة إراعة محدثه بنصف وجهه المشلول، ويلازم كرسيا لا يستطيع تحريكه، وتتحدث علبة إلكترونية نيابة عنه.

أشرت إليها بالاقتراب، قالت: كيف صرت هكذا؟

قلت: وما تفعلين هنا؟

وكنت كمن أعطاها فرصة حياتها المنتظرة منذ دهور، انتشط وكاء نفسها، فتفلتت تفاصيل حياتها المتحولة من نعيم ما كانت تظن زواله، إلى جحيم الإقامة في مقصورة بقسم الرعاية التلطيفية لا يزورها فيها إلا ممرض صلف ينظر إليها نظرة موظف إلى عمله.

استغرق حديثها وقتا طويلا، حرمني فسحة الانتظار، فقد كنت أقضيها في تخمين الوريد الذي سيعثر عليه الممرض، ومحاولة معرفة شعور الخلايا في دمي حين تكتشف فجأة أنها تسحب بقوة إلى أنبوب بلاستيكي، وتوضع في محلول يجبرها على الانفصال، وهل تملك ذاتا واعية بقدرها، وكيف لا تكون للخلية خصائص الجسم، إذا كانت قادرة على التغذية والتكاثر؟

وأمور مستغرقة للتفكير كهذه، لم أجد الوقت لها؛ لأن مسنة خرفة كانت ترى أنها تكرمني بالحديث عن حزنها على فراق قطتها، واضطرارها لوضعها في ملجأ للحيوانات الأليفة، وكأن ذلك جدير بالمشاركة على أبواب غرفة مختبر.

أجمل أوقات الانتظار في هذا الفندق الاستشفائي، أوقات انتظار كلير، في اليوم الذي أعلم أنها ستزورني أستغرق الوقت السابق لحضورها في خوض محادثات طويلة معك ومع نفسي، أتخيل اللباس الذي ستأتي فيه، هل ستكون في فستان طويل يصل منتصف ساقها، وينسدل منسابا لا يعوقه ردف، أم ستكون في بذلة سوداء أنيقة بقميص مرتفع الياقة، أم في تنورة قصيرة بالكاد تصل إلى ركبتها؟

ورغم أن ملابسها لا تؤثر في نظرتي إليها، فحالما أجد سبيلا للانتقال إلى وضع الإزاحة الشعورية أراها بكامل أناقتك، مزركشة الملحفة، مغطاة الرأس، محجوبة البدن، إلا أنها قالت مرة إن اختيار ملابسها ينبع من حالتها المزاجية صباحا.

ولكم ضحكت وأنا أخبرها أني ـ أيام عافيتي ـ لم أكن ألقي بالا لما سألبس بداية يومي، بل أفتح الخزانة وألتقط أول قميص تقع يدي عليه، وأن مجمل قمصاني وحيدة اللون، ومعظمها بألوان هادئة، بين الأبيض والأزرق الفاتح بمختلف تدرجاته، وليس من بينها قميص أسود ولا أحمر، ولا أصفر ولا أخضر.

في رأيها أن ذلك ينبئ عن انعزال ونرجسية، فالملابس ذات الألوان الهادئة يقول صاحبها، دعوني وشأني، لست متفرغا لتفاهاتكم.

أخبرتها مرة أني التقيت فتاة فاقترحت أن تتسوق معي، على أن أترك لها اختيار الملابس التي تراها مناسبة، وقد اختارت لي قمصانا مزركشة الألوان فاقعة وعلى أحدها عبارة «لا وقت لديَّ أضيعه في الأحاديث السخيفة»، وطلبت مني أن ألبس أحدها قبل الخروج من

المتجر، وكيف أن ذلك كان آخر لقاء لنا، وقد ألقيت كل اختياراتها في أقرب بنك ملابس وجدته في طريقي.

لا أتفق مع كلير في طرحها النفسي لدلالة الألوان، فاختلاف ثقافتينا يحتم ذلك، ولست من أنصار عولمة القيم الجمالية، فالذوق شيء لا يمكن قياسه بالمعادلات الرياضية، ولكني أستمتع بجدالها.

أستفيد أيضا من انتظارها في تخطيط الأسئلة التي سأقود بها مجرى الحديث، ومحاولة استشراف أي منحى قد تأخذه أسئلتها.

اليوم استلقيت ساعة أو ـ قريبا من ذلك ـ وأنا أدير في نفسي حوارا مطولا أود خوضه معها، حول جدوى ما تقوم به من عمل في تلطيف الموت.

ولماذا ترى الاكتئاب مرضا؟ وما الضير أن نكتئب؟ وما قيمة الحياة إذا سارت على نسق سعادة دائم؟ ولماذا الإنسان المعاصر أكثر حساسية لوضعه النفسي مما كان عليه غيره؟

ولماذا لم أسمع بهذا المرض إلا في البلدان ذات الثقافة الصحية المتقدمة، فطيلة السنوات التي قضيتها في ذلك البلد الواقع خارج القرن الحادي والعشرين لم أسمع يوما أحدا يشكو من الاكتئاب أو التوتر أو القلق، وليس في مفردات اللغة التي يتحدث بها أهل البلد مرادف لأي من الأمراض النفسية سوى ما يصطلحون على تسميته الجنون، وهو حال متقدمة من الذهان أو انفصام الشخصية.

وهل تكون اللغة هي السبب؟ فانعدام مفردة فيها جعلهم لا يجدون مسمى لتلك الأمراض، وبالتالي لا يؤمنون بوجودها؟

وهل الاكتئاب مرتبط بحالة من عدم اليقين في المستقبل، أو هو ندم متطور على فشل في الماضي، يواكبه عجز في الحاضر؟

عشرات الأسئلة الشبيهة بهذه أمضيت فيها وقت انتظارها، قبل أن تدخل سيدة على مشارف الخمسين، وتقول بكل هدوء إنها تدعى بريجيت وستتولى رعايتي النفسية خلال فترة إجازة كلير، وتطلب مني الخروج معها إلى الحديقة.

١٠

«أشد الناس ذو العاهة».

مثل موريتاني

تؤمن كلير بالكارما، وهو مفهوم غامض الملامح بذلت وقتا طويلا في شرحه والاستدلال على صحته، وهو قريب من فكرة «التزبوت» في الثقافة الموريتانية، خلاصته أن أعمال الشخص وحتى نواياه يعود عليه عقابها أو جزاؤها في الدنيا ـ وإن طال الأمد ـ وقد دار بيننا حديث طويل في إحدى الجلسات حول ذلك.

كنت أسيح غارقا في متابعة حديثها المفعم أنوثة وهي تشرح الفكرة.

ولدى كلير حين تخلع رداء الطبيبة أنوثة طافحة، فهي توظف كامل جسمها في الحديث، وذلك مشترك ثقافي لدى معظم سكان حوض المتوسط، فتراها تحرك يديها تقليبا إلى اليمين والشمال وإلى الأعلى والأسفل، حتى وهي تحاول إخفاء ذلك بوضعهما على الطاولة أو بحمل شيء فيهما، وتغمض عينيها بنعومة عندما تحاول استرجاع ذكرى بعيدة، وترفع حاجبيها قليلا حين تريد الإيحاء بالجدية، وتميل رأسها إلى اليمين قليلا حين تسترسل، وترفع منكبيها سنتيمترين عن موضعهما ليلامسا قرطيها ويحرما جيدها الأغيد من الظهور بطوله الكامل.

اتصلت اليوم بهاتف آنجيلا لتطمئن على حالي، وتوصيني خيرا ببريجيت، وتعتذر عن أخذ إجازتها في هذا الوقت نظرا لارتباط سابق لوجودي في المستشفى، سألتها ضاحكا إن كان تولي بريجيت وظيفتها نوعًا من الكارما؟

ضحكت بعذوبة قائلة: لا تحكم عليها بمظهرها الرسمي، إن قلبها قطعة حلوى.

يا له من اختيار سيئ للتشبيه، أجبت.. فضحكت وودعتني على أن «نبقى على تواصل».

وكان ذلك التعبير مشئوما، فمنذ قلتِ تلك الكلمة في موقف سيارات المطعم الفرنسي وأنت تغادرين، لم أسمع منك كلمة أخرى. هل ستختفي كلير كما اختفيت أنت؟

وهل اختفاؤها سيكون عقابا لي على عدم الاتصال بك؟ أم سيكون مكافأة على الوفاء لك رغم ما يتاح لي من مغريات الخيانة؟

أشعر برغبة مفاجئة في البكاء.

البكاء كطفل محروم، أو كشيخ متبتل في محرابه في ليلة حالكة السواد، أو كمُدافع سجّل هدفا في الدقيقة الأخيرة في مرمى فريقه فحرمه من كأس العالم.

أريد أن أبكي عجزي، أن أذرف دموع الوحدة على هذه الوسادة التي تتبدل كل يوم، أن أشهدها على ضعفي وخذلاني، وأن تسجل شاشة هذا الحاسوب لحظة انهياري بعد صمود طويل.

خلال عافيتي كنت أجد متنفسا لنوبات الغضب التي تنتابني في

تكسير كل ما في يدي، تحتوي خزائني جثث سبعة هواتف وجهاز حاسوب لوحيا، كان كل منها معتمد حياتي، منه أدير أعمالي، وفيه أخزن ذكرياتي، وفي لحظة الغضب كان أقرب حائط يتولى تهشيم كل ذلك إلى شظايا من الزجاج الأسود.

وذلك أحد أسباب أني لا أحتفظ لك إلا بصورة واحدة، فقد كانت حالة البارانويا أو جنون الارتياب التي عشتها بفعل هذا المرض قبل اكتشافه، تجعلني لا أثق في الأرشفة السحابية، وأفقد معطيات أي جهاز هشمته، وأستأنف مع الجهاز الجديد من الصفر.

لكني الآن حبيس هذا الجسد المشلول.

حتى العين العوراء التي سحت دمعها على أنغام ديمي بنت آبه، ترفض الآن أن تبكي.

هل هناك ما هو أسوأ من فقد السيطرة على الدموع؟

عندما سألتني بريجيت عن أسوأ لحظة شعورية في حياتي، أخبرتها أنها تكون عادة لحظة استعادة التوازن بعد الغضب، حين أكتشف أن أمرا تافها استنزف طاقة كبيرة، وخلف خسائر في أرواح المحيطين بي، ليس بموتهم بل بجرح مشاعرهم، عندما أدخل نوبة غضب وأفقد السيطرة على نفسي، وأرمي ما كان في يدي مستديرا بكامل قوتي نحو أقرب حائط.

سألتني إن كنت آذيت أحدا جسديا في إحدى نوبات غضبي؟

فطلبت منها العودة إلى الغرفة، فهي لا تختلف عن طبيبي النفسي الذي كنت أدفع له مقابل وقته.

الآن لو سألتني مرة أخرى السؤال نفسه فسأقول لها إن أسوأ لحظة في الحياة هي لحظة خيانة الشعور، ولحظة عجز الرغبة.

تلك اللحظات التي تكتشفين بعدها أنك ظلمت الموقف، موقفا كان يستدعي صيحة فرح وسيلا جارفا من السعادة، فكنت فيه باردة كمذيع نشرة الثالثة فجرا، محايدة القسمات كجراح في غرفة العمليات.. أو موقفا كان يستدعي حزنا عميقا، ونحيبا طويلا، فلم تجد فيه العين بدمعة.

أليس ذلك خيانة؟

أليست خيانة من أجسادنا أن لا تستجيب للمواقف بما يتوجب عليها؟

ألا يتوقع منها وهي أقرب خليل لأرواحنا أن تتصرف بما يمليه عليها واجب الصداقة؛ أن تبكي أو تضحك أو تنفجر أو تشل، حين تكون أرواحنا غير واعية بالموقف، أو سادرة في معاناة أخرى؟

ثم تأتي الصحوة متأخرة، كخطة ناجعة للنصر أرقت جنديا مهزوما ولكن بعد انتهاء المعركة.

لماذا يرى المتألم أن على الكون التوقف لمشاركته ألمه؟

إذا كانت عيناي الغائرتان في محجريهما المجوفين في هذه الكتلة العظمية القبيحة عاجزتين عن الاستجابة لأمر تلك الكرة اللزجة بشعة الذيل، وهما لا تبعدان منها إلا خمسة سنتيمترات، وبينهما من التواصل ما تسمعان به صوتها بوضوح وهي تأمرهما بالبكاء، فلماذا ألوم شخصا آخر لديه مشاغله وهمومه على أنه لم يوقف كل شيء ليمنحني دقائق من التعاطف الزائف في معظمه؟

ولماذا هذا التناقض العميق، بين مقتي للشفقة، ورغبتي الدفينة في سؤال أحدهم عن حالي، حتى ولو كان من باب المجاملة التي تقتضيها مفردات تبادل التحية؟

هل كان هذا المرض سيتراجع لو كنت محاطا بأقرب الناس إلى قلبي؟

أم أن حضورهم لن يكون إلا عذابا مضاعفا، فهم يروننني عاجزا بعد قوة، ومجبرون أخلاقيا على إبداء التعاطف، وترك ما قد كان أهم من الجلوس على كرسي في غرفة مستشفى؟

هل كنت ستتوقفين عن الذهاب إلى مكتبك وتبقين على تواصل يومي معي لو أطلعتك على تقدم المرض لحظة اكتشافه؟

ولو فعلت ذلك يوما أو يومين، هل تستطيعين الاستمرار فيه؟

أشعر أن روحي خاوية تتضور رغبة في عناقك، تريد إسناد رأسها الواني إلى قلبك، تتململ نافرة من جسدي المتصلب، تتمنع عن مناجاتي، تنساق إليك مستنجدة فلا تخذليها.

سألتني مرة ونحن نتقاسم الفضاء في ليلة صيف كان القمر ثالثنا فيها، وإن ضجت الأرض بغيرنا: أي عيب أريد أن أغير فيك؟ أجبتك حينها أنه بطء الغضب، لقد كنت مخطئا؛ إن عيبك الأكبر عجزك عن معرفة الغيب.

١١

نحتُّ على خد الحياة بمدمعي خريطة أحزاني إذ السعي أخفقا

قالت كلير مرة إنها تعلمت من البوذيين في كمبوديا أن المقارنة هي ألد أعداء البشر، فمنها تتولد كل المشاعر الأخرى حسنها وقبيحها؛ منها يأتي الحسد والطمع والنفاق، ويأتي الكبر والعجب والتفاخر، وكذلك الرضا والتواضع والقناعة، وهي ترى أن الإنسان يبقى في سعة من أمره ما لم ينظر إلى ما عند غيره.

وقد خالفتها في ذلك ووافقتها، إذ رأيت مسلك البوذيين في ذلك ضربا من التصوف يستحيل على البشر اتباعه، فالمقارنة أساس الوعي البشري، ولولاها لما أدرك الإنسان محيطه، ولما حقق مطمحا، ولا غيّر واقعا.

مساء اليوم كانت فيث حزينة جدًّا، كان وجهها يقطر أسى، ولم أتبين أسنانها المتلألئة وسط بشرتها السمراء، ولمزاجي حساسية مفرطة من الحزن، فمساحات الفرح في المستشفى ضئيلة جدًّا، وكانت حيادية فيث الدائمة إحداها، لكنها اليوم سكبت على وجهها برقع حزن لم أستطع تحمل رؤيته، فاضطررت لسؤالها، وهذا ما لا

أحب فعله، فخلال الأشهر الماضية فهمت شخصيتها الانطوائية، وتفهمت عدم رغبتها في تجاوز العلاقة بيننا حدودها البيروقراطية.

بعد محاولات كثيرة للتواري خلف الإجابات العائمة من قبيل: أنا بخير، كل شيء على ما يرام، كانت عيناها تميلان بلا قصد إلى جيب سترتها الأيسر، وكأنها ترغب في إدخال يدها فيه، ولا تملك الجرأة لذلك.

قلت لها مازحا: أتفهم تحفظك، فأنا لست إلا رقما على جدول عملك، ولديك قائمة بما عليك فعله لي، وليس من ضمنها أن نتحدث، لا عليك، آسف على الإلحاح.

وكأن وخزا خفيفا من ضمير نبه فيها شعورا عميقا، يتوارى خلف قسماتها المهنية، فأدخلت يدها في جيب سترتها وقالت:

ـ ميلّا مختفية منذ خمسة أيام، وقد بحثت عنها في كل مكان، ونشرت صورها في شبكة الحي الاجتماعية، وعلى أعمدة الشوارع، ولم أعثر لها على أثر، أخشى أن تكون تعرضت للاختطاف، فلم تتأخر يوما عن البيت.

ـ من تكون ميلّا؟ قلت بكل ما استطاع الجهاز الغبي التعبير به من نبرة أسى.. كم عمرها؟

ـ سنتان ونصف.. أجابت وهي تبحث في هاتفها.

ـ يا إلهي.. هل كانت في الروضة؟

ـ لا.. إنها عادة تكون في فناء البيت تنتظر عودتي، قالتها وهي توجه الهاتف بمحاذاة وجهي، ليكون في زاوية تسمح لي بالرؤية بعين واحدة.

شككت بادئ الأمر أنها أخطأت الصورة، لكنها بادرت قائلة:

ـ هي قطتي المفضلة من بينهن، أعتني بها منذ قرابة السنة، وأفضلها على بقية القطط، فهي الوحيدة التي تستقبلني كل يوم، وترفض التزاوج حتى لا تنشغل بتربية الأبناء عني، تعودت إطعامها وبقية القطط قبل المغادرة إلى العمل، وعندما أعود صباحا أجدها أمام الباب.

أحسست بغصة في حلقي، وأغلقت جهاز النطق، فالأفكار التي تدور في ذهن جلف من الصحراء، تعوّد القسوة في كل شيء، ليست أفضل ما تسمع ممرضة حانية على قطة بيضاء منمقة بنقاط بنية على جانبيها، وذات ذيل كأنه قطعة حلوى كراميل منسية على طاولة مقهى شعبي.

كان صمتي المفاجئ صادما لفيث، فربما توقعت مني تعاطفا، أو على الأقل تفهما لنضالها المقدس في البحث عن قطة.

جلست على الكرسي، وأسندت ذراعها إلى المنضدة كما يفعل كاتب مبتدئ يعاني عسر الإلهام، ثم استحوذت بنفس عميق على كل ما تتسع له رئتاها من الهواء الملوث برائحة المستشفى، وقالت:

ـ أتفهم أنك ترى ما أقوم به عملا بلا طائل، ولكن تلك القطة على حداثة سنها كانت أكثر وفاء من كل البشر الذين عرفتهم، كانت تتسلل من نافذة المطبخ إلى سريري ليلا وتنام على ذراعي، مانحة إياي ألفة عجز البشر عن توفيرها، تشاركني متابعة أفلامي المفضلة، وتقرأ ملامح وجهي فتخرج حين ترى مزاجي عكرا، ولم تفش لي سرا، وكنت أحدثها بأعمق همومي، فالبشر مهما بالغوا في إبداء الاستعداد

لمشاركة الهموم، فإن لكل منهم من الغم ما يكفيه، وليس في صدره مساحة شاغرة لأحزان شخص آخر، ولذلك حين تضيق صدورهم تكون أسرار الآخرين أول ما يتخففون من حمله.

كان صوتها عميقا، وصادقا، خلا من كل تكلف، كأنها تتحدث إلى مرآة، وأثناء استرسالها في الحديث، كانت تمرر يدها على الشاشة مستعرضة صورا متعددة لميلّا وكأنها تناجيها في لحظة شوق مبرح.

قلت محاولا استزادة حديثها، فهذه فرصة نادرة أن تتحدث فيث عشر جمل متواصلة:

ـ نحن من نتسبب في خيبات آمالنا من البشر، عندما نرفع سقف توقعاتنا منهم، فالإنسان مهما حاول أن يكون اجتماعيا فإن فردانيته تبقى ذات أولوية.

رفعت رأسها قليلا عن الهاتف، ثم نظرت إليَّ بوجه خالٍ من أي تعبير وقالت:

ـ سأعود على رأس الساعة لتفقد السرير.

ووقفت كأن الحديث الذي كان يدور بيننا لم يكن قط.

كان ذلك مؤذيا ومؤلما، كانتهاء رصيد الهاتف بعد ثانية من شروعك في ضحكتك الأولى خلال محادثة لانتشالك من الاكتئاب.

مؤذيا؛ لأنه خلف جرحا غائرا في قلبي بفعل التجاهل المقيت، لكأني علبة سجائر فارغة على الشاطئ، أو رادار لحظة الازدحام.

ومؤلما؛ لأن شخصا مثلها ما كان ليضيع فرصة محادثة مريض

فاقد للذاكرة إلا إذا كان نفض يده من الجنس البشري قاطبة، وامتلأ قلبه بطعنات غائرة بنصال مَن منحهم ثقته الكاملة.

تكورت على السرير المحصن بالعوارض الفولاذية، محملا بعناء يوم لم يتسع لنفثة مصدور كشمسه التهابا، أواريها بين جنبي لتكسب قلبي دفئا، ثم ما يلبث هذا الليل أن يستدرجها مستخفا، وكأنه ما جعل لغيرها لباسا، ويترك القلب مرتجفا يتلفع أسمال ذكريات تتسرب ببطء.

تمايز لعيني الشاخصة إلى موضع جلوسها قلم مكتئب هجرته أناملي المقاومة للموت، يشتعل غيرة حين يراني أتحسس شاشة اللمس، ويذرف حبره بصمت تاركا شواهد بؤسه على دفتر المذكرات المهمل على المنضدة، وهو يرى أصابعي العشر تتناثر على لوحة المفاتيح.

فقد كان بيني وبين قلمي اتفاق، أن لا أسب به شخصا، ولا أحابي به حاكما فاسدا، ولا أكتب به إلى امرأة لا أحبها، وهو لا يخذلني حين أستنجد به، وقد عشنا على هذا الحال عشرين سنة ما رأى أحدنا ما يسوء صاحبه.

حركت تلك النظرة المخذولة منه إليَّ شوقا عميقا، فوجدتني أهفو إليه، إلى انحنائي على ورقة بيضاء، إلى عض شفتي السفلى وأنا أنفض مداده المتجمد من طول إلقائه في درج مكتبي.

أستغرب هذا الحنين المفاجئ إلى قلم لا يتيح التعبير إلا لثلاث أصابع فقط من بين عشر، وبين يدي لوحة مفاتيح تمنحني إحساس المشاركة التفاعلية لكل أناملي.

أيعقل أن تكون تلك الأصابع الثلاث في اليد اليمنى قد اصطفاها القلب لنفسه، ليبوح لها دون غيرها بمكنونه، ويصدقها القول في خبايا ما يكتم عن سواها؟

وماذا تفعل قلوب أولئك الذين لا يكتبون؟

كنت حدثتك مرة أني في صباي حلمت أن أكون روائيا، أدرك الآن أن ذلك كان حلما صبيانيا، فالروائي يكتب عن كل الأحزان التي آلمت آخرين تعثر بهم قلمه في سعيه الحثيث لملاحقة أحزانه، وهو يكتب تلك التفاصيل الصغيرة التي اختزنتها ذاكرته عشوائية الانتقاء، يكبح جماح نفسه في كل موقف يجرفها إليه المشترك بين حياته وحياة أبطاله، وحين يقرر فجأة أن يكتب حياته كما هي، لا يكون روائيا بل يكون إنسانا، واليوم لا أحتاج شيئا حاجتي إلى ذلك الإنسان.

عدلت وضع الوسادة المرصعة بحزني، لتحمل رأسا خاويا من كل شيء إلاك، هنا حيث الوحدة تؤنس القلب بذكرياتها المتسللة بين الشراشف، وأهدابي تجدّف في لجة دموعها مجهدة لتحافظ على حبك المخبأ بينها لحظة صفاء وتنقذه من الغرق في بحر النسيان.

ثم ناديت الممرضة لإسدال الستائر، ولم أفعل ذلك بحثا عن الظلام، بل لأحجب نور ابتسامتك الساطعة ذات سعادة، حتى لا يستيقظ المرضى قبل طلوع الشمس.

١٢

في لجـة العشـق هذا البـــوح يغرقنـي   فانشر فؤادك لا تأبه لمن هلكـوا
قد التقى الحب فوق الحب في دسري   والقلب يخفق والأرواح ترتبــك
عجــل بطـوقــك يـا حبيب إن هنـا   من كان يجمع للعشاق ما تركـوا

كانت تلك الأبيات كل ما استطعت استجماعه من حلم راودني ليلة أمس، كان ضبابيا مليئا بالتفاصيل الغامضة، بدأ ـ ما أذكر منه ـ ونحن نصعد مرتفعا في طريق سريع مخصص للسيارات، ولكننا كنا على دراجة هوائية، وكنت تغالبين خوفك من السقوط، وخوفك من انكشاف شعرك بفعل الرياح المعاكس تيارها لاتجاهنا، وكنت تشدين بيد خصري، وباليد الأخرى تمسكين مجامع ملحفتك من تحت العنق، وفجأة تحولت الدراجة إلى سيارة رياضية، وكنت تجادلينني في اختيار لونها الأزرق الغامق، وترينه لونا حزينا، لا يناسب الرحلة، إلا أن أغنية للفنانة المعلومة بنت الميداح كانت تصدح من سماعاتها، أخرجتك من حالة الخوف من سرعتها المفرطة إلى واقع الاندماج الغريب مع كلماتها، ثم أرسلت يدك إلى ذقني كأنك تستغربين ما آل إليه لونه، وتقولين لو كنت أعلم أن الشيب سيجعلك هكذا ما اقترحت عليك صباغته، وبعد ذلك لقطات غير واضحة التفاصيل، فيها فندق فخم استقبلنا بعصير بارد وصلناه وقت الظهيرة، ثم محل

للمجوهرات كان في الطابق الثاني من الفندق ومنه وضعت لك سوارا ذهبيا وقلت: هذا تعويض عن السلسلة الفضية التي أعطيتني مع الصورة، وفجأة يختفي الفندق بما حوى، ولا يبقى إلا شاطئ رماله كاللبن بياضا، وكرسي واحد من النوع الأقرب إلى الاتكاء، وطاولة صغيرة فوقها كتاب غير واضح العنوان وقلم من ماركة قديمة كانت شائعة في تسعينيات القرن الماضي، وأنت تصارعين الموج على تثبيت اسمك على الشاطئ، ثم انشغلتُ في كتابة اسمك واضعا عليه دائرة وليس قلبا، وكانت الشمس تحدق غير راضية عن انفرادنا قبل الغروب، ثم اختفيت عن بصري ولم أعد أسمع إلا صوتك وأنت تنشدين الأبيات السابقة استنجادا، ولكني لم ألتفت، وكأني لا أشعر بالأسى على مصيرك.

ثم وأنا جالس وحيدا في دار أوبرا عملاقة، ليس فيها إلا الفنان الفرنسي جيلبير بيكو وهو يغني أغنيته العظيمة: والآن.. ماذا سأفعل بهذا الزمن الذي سيسمى حياتي؟ بهؤلاء الأشخاص الذين لا يهمني أمرهم.. الآن وقد رحلت.. لمن تأتي هذه الليالي؟ وما قيمة هذا الصباح؟ وهذا القلب الذي يخفق بقوة لمن ولماذا؟

كنت أتأمل دمعة صغيرة انحدرت من عينه لما وصل المقطع الثالث حين قال: تركت لي الأرض بكاملها، لكن الأرض من دونك صغيرة جدًّا.

استيقظت على آنجيلا وهي تغني بصوت ناعم أغنية: إنه فجر جديد، إنه يوم جديد، إنها حياة جديدة. كانت جالسة عند بداية السرير، تمرر يدها بحنو على شعري الحريري الذي لم يلمسه حلاق

منذ أشهر، وتزيح ما نزل منه على جبهتي، في لمسة أقرب ما تكون للمسة أم.

كان وجهها يشع فرحا، وتسرب عطرها الخفيف جدًّا إلى نفسي، قاومت الابتسام في وجهها وأنا أفتح عيني بصعوبة، لكنها وضعت يدها على عيني المبصرة وقالت: ابتسم، وإلا فلن ترى شيئا.

منذ سيطر الشلل على نصفي الأيسر باستثناء قلبي الذي تحصنينه بحبك، لم تعد لي رغبة في الضحك ولا حتى الابتسام، فجمال الضحكة في قدرتها على تحريك عضلات الوجه بتناسق ينقل عدوى السعادة إلى كل من يراها، وقد كنت أحرص الناس على ابتسامتي، واتبعت نصائح الأولين بالحفاظ على أسنان بيضاء رقيقة حادة القواطع، ولكن الشلل يطفئ ذلك البريق ويحول وجهي إلى مشهد مرعب لممثل في أفلام الموتى السائرين، فلماذا أبتسم؟

ستبتسم.. فلديَّ ثلاثة أخبار سارة لك اليوم.. هكذا همست آنجيلا في أذني وهي مصرة على أن لا تزيح يدها عن عيني، فابتسمت مُهمهمًا من دون أن أفتح فمي.

دعني أقولها لك دفعة واحدة، لن يخرجك من هذا الكسل السريري إلا سماعها دفعة واحدة، فالجرعات الخفيفة من الفرح تجد مقاومة أقوى في حالتك، ولكن قبل ذلك سأغير الشراشف وتنظف أسنانك وأغير ملابسك وأحلق هذا الشعر المتنامي في وجهك على غير اتساق، وحين تكون في حالة تليق باستقبال السعادة سأخبرك.

كانت آنجيلا تقول ذلك وهي تزيح ستائر الغرفة، فاتحة المجال أمام شمس يكابد شعاعها بصعوبة للتسلل بين كتل الغيوم الداكنة

وهي تتدلى كعنقود يانع من التوت الأزرق تنبض حباته بقطرات ندى صباحي.

كانت الأخبار الثلاثة التي اعتقدت آنجيلا أنها ستخرجني من سَورة الغم لا ترقى إلى أن تسبغ عليها صفة الأخبار السعيدة تلك، وإن كنت لا أنكر أن سماعها وجو الحماس الذي خلقته آنجيلا، وهي تخبرني كل خبر بطريقة مختلفة ممثلة دور كوميدي على خشبة مسرح للأداء الفردي، جعلها تبدو مقبولة نوعا ما.

أخرجتني آنجيلا بعد حمام مترع بالعطور، ومسحت بأناقة لافتة بقايا معجون الحلاقة تحت ذقني، ودفعت الكرسي بحركة دائرية ليتوسط استراحة الغرفة الفارغة، وهي جزء واسع بعرض خمسة أمتار تزينه رفوف خشبية متناثرة تكتب في تشكيلها عبارة «كن سعيدا» وفيها كتب منوعة ومجلات علمية وبعض الهدايا العامة، وعلى أرضيتها أرائك بلون أزرق متوسط الكثافة، لا هو سماوي خالص ولا هو غامق، وتزينها وسائد بيضاء، أخذت آنجيلا إحداها ووضعتها في هيئة الغيتار وقالت:

ـ غدا ستصطف أرصفة المدينة في طابور طويل، متطاولة الأعناق مكتملة الزينة، وهي تستعرض أمام جلالتك لتختار أيا منها سيحظى بشرف أن يكون أول ما ستضع قدمك عليه!

قاطعتها بعصبية: آنجيلا أنزليني من هذا الكرسي على الأريكة، وأعطيني دفتر المذكرات والقلم القديم.

ـ يا لك من مفسد للمتعة! ردت بعفوية، كأن الكلمة مقطع من أغنيتها المرتجلة، ولكن غدا لن تحتاج هذا الكرسي البليد، وستتمكن

من المشي بقدميك إلى حيث تريد، فقد انتهى تصميم الطرفين الصناعيين الذكيين، ونحن في طريقنا الآن إلى مختبر الأعصاب لتركيبها وضبط إعداداتها لتناسب ذبذبات دماغك المتصلب.

وما الخبر الثاني؟ رددت ببرود كأن الخبر الأول لا يعنيني إطلاقا.

فاستدارت آنجيلا باسطة إحدى ذراعيها في الهواء ورافعة يدها الأخرى قرب خصرها، ورجلها ترسم مثلثا متساوي الأضلاع منطلقا من ركبتها اليمني، في حركة رقص لم أكن أظن أن جسمها الممتلئ يسمح بالتفكير فيها، لكنها أدتها باحتراف وقالت:

ـ تلقينا ردا من إحدى أكبر شركات الأدوية العصبية، ويقول تقريرهم إن لديهم دواء في طور التجريب يستخدم الخلايا الجذعية، وهو دواء قادر ـ نظريا ـ على بعث الحياة في كل عضو ميت من جسمك...

ومن دون تردد قاطعتها وما الخبر الثالث؟

ـ يا جلف الصحراء دعني أكمل الخبر الثاني، قالتها بصوت يقلد أبطال أفلام الملاحم، إلا أنها كانت تبتسم وهي تحاول الارتكاز على رجل واحدة من دون أن تفقد توازنها.

ـ أعرف بقية التفاصيل: سيحتاجون لعينة من سائل النخاع الشوكي، وستؤخذ تلك العينة خلال عملية تدوم نصف ساعة بتخدير موضعي، وسأعاني بعدها صداعا مقيتا، وآلاما مبرحة في الرقبة... ما الخبر الثالث؟

بدت آنجيلا على وشك أن تفقد روح الدعابة، لكنها التفتت إلى

قارئ الأقراص الموضوع على الطاولة واختارت أسطوانة عشوائيا، فكانت السيمفونية السادسة لتشايكوفسكي، وهي أسطوانة تحمل معها كثيرا من الذكريات، ففضلا عن كونها من خالدات الموسيقى العالمية، إلا أن هذه الأسطوانة تحديدا أكثر خصوصية من أي شيء قد يجده المرء في محلات البيع أو مواقع الإنترنت، إذ إنها مسجلة من أداء تجريبي أخير لفرقة أوركسترا عربية من أبناء المهاجرين في موسكو، وأهداها لي أحد أعضاء الفرقة، وهو عازف كمان لم تسعفه الحياة بإمتاع العالم، لكنه غادر الدنيا وترك إرثا عظيما من الجمال المتناثر بين رفوف قلة من أصدقائه.

فور مرور عشر ثوانٍ من المقطوعة أرادت آنجيلا تغييرها، فهي لا تتذوق الموسيقى الكلاسيكية، ولكني زجرتها بأقوى ما استطاع جهاز النطق أن يرفع من صوت، فالتفتت إليَّ ضاحكة، وقالت:

ـ هل رأيت ما أسوأ المقاطعة؟! الخبر السعيد الثالث، سنقيم حفلة صغيرة الأسبوع المقبل، وأريدك أن ترقص معي، فلن يكون لك عذر حينها.

ـ لا، لن أفعل.

ـ لماذا؟ لقد طلبت منك أن ترقص معي ولم أطلب أن تتزوجني، أو تشتري لي قصر حديقة الأمراء... تعرف.. لا أريد أن ترقص معي.. أو سترقص معي غصبا.

كانت تعبر عن آنجيلا الطفلة المشاكسة والفاتنة الجامحة، وليس الممرضة المنضبطة بقوانين المستشفى، لكن دخول الدكتورة بريجيت قطع عليها حديثها، ونظرت إليَّ تلك النظرة التي تعبر عن

السخط والإحباط، فرددت بحركة مغيظة: هذا جزاء من لا يحب المقاطعة.. ولم أتمالك أن برزت تلك الابتسامة الشوهاء على نصف وجهي.

لم أشعر أبدا برغبة في الجلوس مع بريجيت ولم أستسغ حتى تعيينها بديلا لكلير، ولكن وصولها اليوم كان في وقت مثالي جدًّا؛ أولا كانت خلاصا لي من شغب آنجيلا، وثانيا أردت أن أعرض عليها الحلم الغريب الذي استفقت منه اليوم، ليس لأني أريد تفسيرا له أو مهتم أساسا بتفاسير الأحلام، بل لأجد شيئا نتحدث عنه، شيئا لا أكون معه مضطرا لسماع أسئلتها المعلبة.

بادرتني بالسؤال عن المكان الذي أرغب في الجلوس فيه، فقلت لها إني سأستلقي على الأريكة وأن تزيد مستوى صوت مقطوعة تشايكوفسكي إلى المستوى الثالث بدلا من المستوى الأول الذي خفضته آنجيلا إليه.

ـ لا مشكلة، ستكون جلستك المقبلة في مقهى وسط المدينة إذا أردت ذلك.. قالتها وهي تنحني على قارئ الأقراص، ولم تكن تلك الحركة مما يرفع تصنيفها الائتماني في بورصة الجمال.

ـ هل تظنين أني سأكون سعيدا بترقيع جسمي التالف بهذه الرقاقات الإلكترونية التي تعتبرونها إنجازا علميا؟ أنا شخص متصالح مع الموت، متصالح مع الحياة، لديَّ يقين أني سأغادر هذا المستشفى يوما ما، وأريد مغادرته كما دخلته، خاليًا من أي إضافة.

ـ ولكن أن تغادره سائرا على قدميك، خير من أن تغادره على كرسي متحرك، ولا أريد أن تبالغ كثيرا في تفاؤلك، فالعلاج الذي

وصل تقريره أمس من شركة الأدوية علاج تجريبي ويحتاج كثيرا من الإجراءات البيروقراطية والمتابعة المستمرة، قبل أن نضمن نجاحه في حالتك.

ـ ومرة أخرى، لماذا تتحدثين وكأني وافقت على قبول هذا العلاج؟

ـ لن أدخل معك في جدال سابق لأوانه، وظيفتي الأساسية هي تقييم وضعك النفسي، وتقديم النصح الطبي لتتقبل ما تمليه عليه ظروفك الصحية، وليس من وظيفتي إقناعك.

كنت على وشك أن أطلب منها المغادرة إلى غير رجعة، وأن أستخدم حق المستهلك، ما دامت تنظر إلى نفسها بائعة بضاعة.

ولكني اكتفيت بالنظر إليها تلك النظرة الباردة جدًّا، ووضعت يدي على صدري واستغرقت في تأمل عناوين الكتب المتناثرة على رفوف الجدار، ومرت دقائق صمت مريح، لا أسمع فيها إلا العزف العذب للحركة الثانية في السيمفونية وهي تنحدر بعمق إلى أحلك نقطة في الشعور البشري، قبل أن ترتفع تدريجيا لتنتشل الإنسان الغارق في بؤسه نحو قمة عالية من الفرح المتدفق في الحركة الثالثة.

وكأن بريجيت كانت تراقبني وأنا أغوص مع كل نوتة وترتفع رئتاي لالتقاط ما يكفي من الحب لأعيش ثانية أخرى، وفي غمرة انغماسي، رفعت يدي لا إراديا متمثلا نفسي واقفا وسط جوق دائري من العازفين، معطيا أوامري للصف الخلفي من عازفي الساكسفون، وملمحا لمقدمة الجوق من ذوي الكمان أن ينقلوا العالم إلى الجنة.

فتحت عيني، فإذا هي على وشك أن تفتح فمها بكلمة، فسابقتها بالقول رأيت اليوم حلما أو أود سماع رأيك فيه.. وكأني أخبرتها بحصولها على ورقة رابحة، أو بترقيتها رئيسة لقسم الطب النفسي، وقفت من فورها سائلة إياي عن مستوى السكر في قهوتي، ومن دون انتظار الإجابة كانت توصل سخان الماء بالكهرباء، وتبحث في الأدراج عن الكئوس وعلبة القهوة، وتقول أستمع إليك، ماذا رأيت؟

سردت لها تفاصيل ما تذكرت من الحلم، ولم تقاطعني بكلمة واحدة، بل كانت تنظر إليَّ بين الفينة والأخرى، وتحاول إعداد القهوة بالسرعة القصوى كمن يخشى أن يفوته مشهد في فيلم، ثم قدمت إليَّ كأسا مع ثلاثة أكياس صغيرة من السكر، وساعدتني على الاعتدال في جلستي، وسحبت كرسيا لتكون مواجهة لي بدلا من موقع جلوسها السابق على الأريكة المحاذية، وقالت:

ـ إذا كان من تهوى سريع الغضب بطيء الرضا، بليغا إذا عذل، عييا إذا عذر، يسبق لومه وصله، يظن بك ما غبت ظن السوء، وما أنت عنده له مظنة، فقد ابتليت بما ابتلي به السابقون من قومك، وما أرى لك في عواقبهم ما يرجى، وإن كان غير ذلك، فخيرا رأيت.

كانت الكلمات تتدفق بين شفتيها بطلاقة كأنها تستظهر نصا حفظته من سنيّ الطفولة، فقلت: ألكِ سابق خبرة بأحوال القلوب؟

قالت وهي تضم يديها بقبضة حانية على الفنجان كأنها تستدفئ به:

ـ لقد بلغت الثالثة والخمسين، وما أظن فوق الأرض أعلم مني بما للمحبين من صبابة، وقد خبرت الشوق، ونعمت بالوصل، وأحسنت الوداع، وترقبت اللقاء، ولك عليَّ أن لا أحدث فيه بكذب.

بلغت سمفونية تشايكوفسكي ذروة الحركة الثالثة، وشرعت في التذلل تمهيدا للانحناء نحو الخفوت، فقلت: كيف ترين الشوق؟

ـ الشوق شعور عاصف بلذة الخضوع، يخلفه غياب من كان حضوره يملأ فراغ القلب، لا يقاس بالزمن ولا بالمسافة، فقد كنت أشتاق إليه حين ألتفت أرقب ظله على حائط الحديقة ونحن نتمشى صباحا.

قالت ذلك وكأنها ترتل مقطعا من كتاب مقدس، ثم أردفت:

ـ أحوال العشاق بخواتيمها، فكم وجها متهللا يستقبل عابسا يودع، فمن كانت مودته لك على غير صفاء، كشفت لك الأيام حقيقة قلبه فتعجب.

ومع النوتة الأخيرة للحركة الرابعة الشبيهة بلحظة الموت، كانت بريجيت تبحث في المطبخ الصغير عن علبة المناديل الورقية، تمسح دمعها، وتغادر الباب مواربا دون أن تقول شيئا.

لم أكن أملك أي طاقة لسؤالها، ولا أي رغبة في مغادرة الأريكة الزرقاء، فاستلقيت، منتظرا عودة آنجيلا للذهاب إلى مختبر الأعصاب، وتذكرت كلمة كلير حين طلبت مني أن لا أحكم على بريجيت من مظهرها الرسمي.

كنت أراقب الغيوم المتشكلة عبر الواجهة الزجاجية، ويُخيل إليَّ أن زفات العشاق في هزيع الليل كانت السبب الأبرز لتكوينها، وأن نزول المطر ليس إلا بكاء تتعاطف به مع من كان له فضل نشأتها.

وجدت بجانبي المذكرة التي سبق أن أهدتني فيث، والقلم الذي

أحتفظ به من لقائنا، فكتبت تعاطفا مع بريجيت، أو مع نفسي أو معك، أو مع العالم:

يبيت يقاسي الحب صمتا وعينه على كوكب يهوي وآخر يطلع

ويسقي مروج الوعد ملح دموع فتفضي إلى حيث الصبابة تزرع

١٣

«إنك لا تخاصم شجرة تين لأنها لم تحمل ثمار الكرز».

نيكوس كازانتزاكيس

أسعد الناس من لا يرافقه صديق إلى بوابات المغادرة، ولا يستقبله حبيب عند بوابات الوصول، هكذا ترى فيث الأمر، قالت ذلك بعد ما سألتها عن غيابها خلال الأيام الماضية.

فأخبرتني أنها سافرت خلال عطلة نهاية الأسبوع، لتستمتع بإجازة في مكان لا تعرف فيه أحدا ولا يعرفها فيه أحد.

جاء الحديث في سياق شكرها على هدية جميلة قدمتها لي لدى دخولها مساء أمس، بسماتها المعتادة، تقدمت تحمل كيسا ورقيا صغيرا من أكياس الهدايا، وضعته على الطاولة، وأنهت معاينتها الدورية لقياس المؤشرات الحيوية، ثم وكأنها تتحدث إلى أحد زملائها، ومن دون إبداء أي نوع من المن، مدت إليَّ الكيس وقالت: أتمنى أن تعتني بها.

فتحت عرى الكيس فإذا فيه ما يشبه فنجان القهوة، مُلئ عن آخره بتربة سوداء ووضعت على سطحه طبقة من الحصى بألوان تراوحت بين الأخضر الفاتح والبنفسجي والأبيض البراق، وتتوسطه نبتة

صغيرة من الصبار الشائك، عليها زهرة صفراء، ومقبضه على شكل جرو معقوف الذيل.

أبديت شكرا عميقا لها على الهدية الجميلة، وسألتها عن سر اختيارها لهذه النبتة.

ـ لأنها تشبهني، وربما تشبهك، وتشبه أي إنسان سويّ الطباع، فهي لا تحتاج أكثر من إبداء الاهتمام بوجودها، يكفي أن تسقيها مرة في الأسبوع، وتمنحها قدرا ضئيلا من الضوء، وستتفتح زهرتها الصفراء مبتهجة للحياة، وإذا اكتفيت بذلك فيمكن أن تعيش معك دهرا طويلا، وتنتشر جذورها في هذه الكأس، وإذا حاولت الاقتراب منها أكثر من اللازم فإن شوكها سيكون مؤذيا.. إن جمالها وسعادتها وألقها في أن تترك لها مساحة خصوصية مصونة.. هكذا أجابت فيث.

ـ ولماذا تقدمين لي هدية؟ كان سؤالا سخيفا نطقه هذا الجهاز الغبي من دون استشارتي.

ـ ولدت كي أسعد الآخرين، تلك هي مهمتي في الحياة، وحين أعجز عنها، فلا مبرر لبقائي يوما آخر.

ـ ولماذا تفعلين ذلك؟

ـ تقول صديقة لي، إن المائة الأولى من عمر الإنسان تمر صعبة، وبعد ذلك يتعود الأمر، أما أنا فقررت أن لا أنتظر اكتمال مائة سنة لأتعود قسوة الحياة، فواجهتها بأقوى سلاح أمتلكه، سلاح إسعاد غيري، وذلك هو سبيلي الوحيد للشعور بالسعادة، فهمت البشر على حقيقتهم، وعشت بقلب مصفح، لأن بعض تصرفات البشر

تنغرز في بقايا شغاف القلب، وتبقى حبيسة هناك، مؤلمة إذا تركتها، وأكثر إيلاما حين تخرجها، وعملي في التمريض ليس بغية الحصول على المال، فلديَّ من المال ما يكفيني بقية عمري، ولكن لأشعر أني إنسان له قلب ينبض، ولأُكفّر عن قليل من الخطايا التي ارتكبتها.

ـ أليس أنانية منا أن نسعد الآخرين من أجل أن نشعر بالسعادة؟

ـ ستجد الإجابة حين تعتني بصبارة..

نطقتْ هذه الجملة بنبرة أقرب إلى الاستطراد، لكنها لم تكمل حديثها، وخرجت تاركة إياي مستلقيًا على ظهري، أتأمل نبتة شائكة مستزرعة في فنجان بذيل جرو.

مر وقت طويل بعدها وأنا أراشي النوم، لكن كلمات فيث ظلت تتكرر في ذهني، أحاول فك طلاسمها، وعجبت كيف استعادت ذاكرتي فجأة قدرتها على التخزين.

كيف أستخلص إجابة وجودية من زهرة منبتة عن حقلها؟

تأملت أشواك النبتة المتحفزة كظربان أحس بتهديد، تلمست الزهرة الصفراء، فبدت على وشك الذبول، استحال لون أطرافها من الأصفر الفاقع، إلى اصفرار باهت، واختلطت ألوان الحصى المتناسقة لتكون أقرب إلى ممسحة رسام، والتربة التي تملأ قاع الفنجان بدأت تستعيد لونها القاحل.

لم تكن لديَّ أي دراية بالعناية بالنباتات، ولم تمنحني فيث فرصة خوض دورة تدريبية، ولا أعرف الطريقة التي يفترض اتباعها في سقي نبتة غريبة كغربتي.

أحكمت إغلاق العكاز الاصطناعي على رجلي، ووصلت أسلاكه بالمقابس المتدلية من عمودي الفقري، وهو الجهاز الذي هللت آنجيلا لقدومه باعتباره فتحا عظيما سيغنيني عن الكرسي ذي العجلات، أقرب ما يكون إلى سروال برجل واحدة، يغطي الفخذ والساق وفيه فتحتان فوق الكاحل والركبة، تسمحان للمفاصل بالحركة، وتتدلى منه مقابس تربط بنظيرتها المركبة على العمود الفقري لقراءة الموجات الكهربائية، فتفهم أوامر الدماغ بالحركة، ليس سريع الاستجابة كالرِّجل الطبيعية، ولكنه مُغنٍ عن الكرسي، وبفضله صرت قادرا على الحركة من دون استدعاء أحد، وبت أتولى بنفسي شئوني الشخصية.

حين اعتدلت في جلستي، نظرت مرة أخرى إلى ذيل الجرو المعقوف في ممسك الكأس، ثم إلى عينيه المحدقتين بفرح، وكأنه يقول لي: اعتنِ بي!

تقدمت خطوات وئيدة إلى حوض المطبخ المنزوي في جزء من الغرفة، وفتحت صنبور المياه فانطلق بقوةِ دفعٍ جرفت الحصى الملون عن تربة النبتة، واهتزت الصبارة في حركة احتجاجية كادت تقتلعها من جذورها، وتطاير الحصى محدثا نقرات على الحوض المعدني أشبه بعزف نافر من صبي يتعرف على بيانو في محل لبيع الأدوات الموسيقية.

تراجعت جفلا، في حركة لا إرادية، وكأن الفقاعات المنبثقة من الكوب نذير انفجار، وأدركت أن هذه ليست الطريقة المثلى لسقي النباتات.

وضعت الكأس على حافة الحوض متذمرا، ولعنت اللحظة التي قبلت فيها الهدية، لماذا عليَّ الاهتمام بنبتة سخيفة؟

لكن اهتزاز النبتة الذي بدأ في الخفوت كموجة ارتدادية خلفها رمي حصاة على سطح بركة هادئة، وانكماش الزهرة الصفراء المتكورة على نواتها كطفل مرعوب، ورغبتي أن لا أخذل فيث حين تأتي مساء اليوم وتجد نبتتها ميتة، جعلني أشعر بالذنب، أو الحرج، وكأن إغفال العناية بهذا الكأس نوع من عدم الامتنان لا يليق أن أقابل به معلمة الحكمة التي يذكرني اسمها كل يوم بالبحث عما وراء الأشياء الظاهرة.

أعدت ترتيب توزيع الحصى الملون بحيث رسمت بكل لون منه زهرة خماسية البتلات، واغترفت ماء جعلته يترسب بين أصابعي بتساوٍ على قُطر دائرة الكوب، وجلست أتأمل الفقاعات الصغيرة جدًّا وهي تخرج بين الحصا ثم تنفجر بلا صوت، كأنها نفس خفيف لمهموم يواري حزنه، وبين الحين والآخر أكتشف حصاة من لون تختبئ بين حصى من لون آخر فأعيدها إلى عشيرتها، وبقيت على هذا الحال حتى استحكم النعاس في جفوني الذابلة، فارتقيت السرير وكأني حققت إنجازا عظيما، لا يوازيه إلا فرحة لقائنا.

وضعت النبتة بهدوء كرضيع نائم على طرف الطاولة بجانب موضع الحاسوب، وأغمضت عيني مستلقيًا على ظهري وأنا أسمع حديثا خافتا لك متقطع الكلمات، كتتابع صور صممه هاوٍ على برنامج بدائي، لا تناسق يضبطه.

ثم استيقظت بلمسة آنجيلا الودودة، لكن وجهها بدا مكسوا بقتامة

لا تليق بإبهاره، كانت تقيس ضغط الدم، ودرجة الحرارة، ولكن عينها لا تصبر عن النظر إلى الطاولة من دون أن تقول شيئا.

وَصمْتُ آنجيلا أقوم قيلا من حديثها، فحين لا تتكلم فذلك يعني أن غما هائلا يستحوذ على روحها الشفافة.

حاولت كسر الصمت فقلت: ماذا لديَّ اليوم؟

قالت من دون أن تنظر إليَّ:

ـ لديك جلسة مع بريجيت وقد طلبت سيارة وممرضة لترافقك خارج المستشفى.

ـ ولماذا خارج المستشفى، وأين؟

ـ لا أعرف، اسألها حين تأتي، ستكون هنا خلال دقائق.

كانت تقول ذلك وهي تجمع أسلاك أجهزتها، وتسحب الهواء من جهاز قياس الضغط، وغادرت الغرفة من دون أن تلتفت أو حتى تسدل الستارة على السرير.

ولدى مغادرتها كانت بريجيت تدخل بجلال إلى الغرفة مزيحة الستارة بهدوء مفتعل، وتحمل في يدها ملابس رياضة فضفاضة، وبانحناءة خفيفة بزاوية خمس عشرة درجة مرفقة بابتسامة، جعلت التجاعيد الخفيفة في زاويتَيْ عينيها تقلص المسافة بين خطوطها، قالت: جاء اليوم الموعود!

ـ لا تقولي إنه وقت الرياضة.. سأسحب المقابس من ظهري إذا كان ذلك!

ـ رياضة؟! لا.. بل نزهة خارج المستشفى، سنمضي اليوم في مزرعة خارج المدينة.

ـ إذا كان ذلك، فلا مانع.

في السيارة الفارهة ذات المقصورة الخلفية المزودة بمقاعد مخملية متقابلة تتسع لأربعة أشخاص، والتي جلست فيها مع بريجيت تتوسط بيننا طاولة وُضِعتْ عليها قنينتا ماء وبعض المناديل الورقية، وفي زاويتها أزرار تحكم بمستوى إضاءة المقصورة، بادرت بريجيت إلى تخفيف العتمة، فغمر ضوء النهار الربيعي السيارة التي تنهب الشوارع المكتظة أرصفتها بالعابرين إلى المجهول، الحاملين أحلامهم بين جنبات التمني، ورفوف الوعود، الراغبين في الحياة والمستنكفين عنها، الآملين أوبة إلى دفء العناق، والفارين من سطوة الرغبات.

كنت منشدهًا بهذا الحشد البشري المتماوج كأني أستعيد بصري أول مرة، وأنا الذي عرفت هذه الشوارع قبل فقدان نصفه، فناصية الشارع أجمل موقع في مدرسة الحياة؛ ففيها ترى العالم على حقيقته؛ من خطوات المستعجلين، وتدفق المحبطين، وتناوش الأطفال، وارتباك النظرات المشتتة، والأحاديث المتداخلة، تستطيعين قراءة موسوعة المعارف البشرية من دون فتح دفتَيْ كتاب.

عبثت بريجيت بأزرار جهاز تحكم كان على الطاولة، مضيقة عينيها كطفل يحاول تذكر جدول الضرب، ثم ضغطت زرا فتحول سواد أحد جوانب المقصورة إلى شاشة بعرض اثنين وثلاثين إنشا، وتربعت وسطه شابة أنيقة تحتضن كمانا ألبست قاعدته منديلا أبيض وأسندته إلى عنقها وانثنت عليه منحنية لتصفيق جمهور يبدو عريضا ولكنه لا يظهر في الصورة، ثم قفزت نوتة أولى قبل أن تعيد تثبيت

الكمان مرة أخرى، وتدفقت ألحان العظيم نيكولو باغانيني: خمس ثوانٍ من الهدوء ثم استخف الطرب العازفة ست ثوانٍ فتمالكت نفسها وتأرجحت ثلاث ثوانٍ أخرى، كمن يغلبه الضحك في موقف يستدعي الوقار، ثم عصفت بها الأنغام ترفعها لسماء النشوة وترميها في قعر الهيبة، ثم تترنح دقيقة أخرى كالمتمشي على حبل مشدود، قبل أن تستعيد توازنها العميق وتطفح نغماتها بغضب صاخب، وتنهار على عتبة يأس فتستند إلى نغمة أمل جديد، وتعيش دقيقة من الحبور العابر قبل أن تعود إلى الكفاح.

ـ الكابرس الرابع والعشرون ملخص للحياة. هكذا رمت بريجيت كلمتها مع النوتة الأخيرة وسط عاصفة التصفيق.

ـ أعتقد أن هيلاري هان حققت لوودي آلن ما كان يتمناه، قلت مُلمحا إلى أن العازفة الشابة فور انتهاء الكابرس بدأت عزفه مقلوبا، منطلقة من النوتة الأخيرة.

ـ وما ذاك؟ سألت بريجيت في استغراب، ويبدو أنها لم تنتبه لعزف الشابة المعكوس.

ـ قرأت مرة مقتطفا له يتمنى أن تبدأ حياته من انتفاضة رفاته داخل القبر وتنتهي خفيفة كرعشة.. كانت هيلاري هان قد توسطت الكابرس المقلوب، فقالت يبدو أنه وصل إلى يوم التخرج، وابتسمت معتذرة أنها تسمع أول مرة ملحمة باغانيني بهذه الطريقة.

ـ وأنا مثلك.. يحتاج المرء كثيرا من الجرأة للتصرف في إبداع ذلك الإيطالي المهووس بدوس الموروث.

في المزرعة الفسيحة المحاطة بسياج بارتفاع ثلاثة أمتار تمتد مروج مزهرة بأصناف شتى من الورود، فكأنها وجه حبيبة ابن زمرك الأندلسي التي يقول فيها:

ترقرق دمع الطل في لحظ نرجس فكم مدمعا للعاشقين به طلا

وآس عذار فوق ثغر إقاحة يقبل ثغر الورد في الوجنة الخجلى

ولكِ أن تعذريني ـ عزيزتي ـ حين أعجز عن نقل جمال المشهد الذي تخلقه الأزهار المتعانقة كأرواح عاشقين، فقد شرحت لبريجيت أني مثل عليّ بن الجهم، أحتاج سنوات من العيش هنا حتى أستطيع أن أكتب قصيدة عن «عيون المها».

وقد أعجبت بحدة ذكاء الخليفة المتوكل، وأضافت أن الدراسات النفسية الحديثة تقوم على العلاج بالجمال، فتعرض على المريض مناظر أو وجوها جميلة يستغرق في تأملها فيحفز الموصلات العصبية للطاقة الإيجابية، ويتغلب مع الوقت على همومه، وأنها قررت أخذي إلى هنا لا بهدف الحديث معي وإنما كي أستمتع بيوم ربيعي في أحضان الطبيعة.

سأختبر اليوم ذاكرتي، فلن أكتب عن تلك الرحلة أكثر من هذا إلا بعد أسبوع، فإن بقيت محتفظا بتفاصيلها فسأخبرك، وإن تلاشت فذلك يعني أنك لم تحبيها، فحبك هو حارس الذكريات.

١٤

وقد يدرك الإنسان أقصى مرامه ولا يدرك الإنسان أدنى الذي يهوى

ابن عبد الحميد الجكني

لقهوتي صباح اليوم طعم مختلف، البن فيها حلو المذاق كابتسامتك وأنت ترتشفين الفنجان الآخر يوم كنا في المقهى الفرنسي، الحليب بدا أكثر بياضا لانعكاس وجهك على زجاجه، مكعبات السكر كانت لزينة الطاولة، ففي وجودك لا حاجة إليها.

إنها السابعة صباحا من يوم الشوق، تتهادى في مخيلتي ظلال شفافة من الذكريات، وتتقافز الأفكار الضجرة والأسئلة السخيفة في سباق جائزته لآخر الواصلين، تستحوذ عليَّ إجابة معلقة لسؤال بلا معنى: لماذا أشرب القهوة الآن؟

حين كنت في المقهى الهادئ بالطابق الثالث أمس، طلبت قهوة بحليب جانبي، كنت واثقا أن النادل المبتسم لن يستطيع تذكر مقدار الحليب المناسب لقهوتك التي طلبتها في ذلك الصباح البرزخي، وحين أردت إضافة الحليب إلى القهوة كانت الخطوط البنية اللولبية في الفنجان تدور مُشكِّلة دوامة احتجاج، تذكرت أنك قلت لي مرة إن الجميل في القهوة ليس طعمها وإنما رائحتها.

انحنيت قليلا على الفنجان مستنشقا رائحة البن المحترق، واصطنعت حضورا لك في الكرسي الشاغر بالجهة المقابلة من الطاولة الصغيرة، فانفلتت من جهاز النطق: هل هذا يكفي؟

كان صوته غريبا، وفي الطاولة المجاورة سيدة عجوز تشغل يديها المرتعشتين بمغزل صوف، تنسج كفنا لأيامها، نظرت بعينين غائرتين في تجاعيدها القاحلة، وكأنها فهمت ما أرمي إليه، ولم تزد أن ابتسمت، فهي مثلي ربما تحدث حبيبها مع كل غرزة.

والآن أتأمل خيطا من الهواء الساخن يرتفع مغادرا دوامة الفنجان، وأعذره.

على الطاولة المحاذية للسرير مساعد آلي يفترض أن يكون ذكيا، أستعين به لأداء المهمات البسيطة، كإطفاء الإنارة، ومعرفة الوقت، والبحث عن المعطيات في الإنترنت، وقراءة الكتب الصوتية، التفت إليه محييا، وطلبت أن يختار مقطوعة تناسب هذا الصباح.

فأجاب بلا تردد: ما رأيك بمسيرة الجنازة؟

ـ فلتكن جنازة أحزاني إذا.

مرت الخطوات الأولى للمسيرة مهيبة، تليق بجلال فقدك، أتخيل فريدريك شوبان وهو يوزع أنامله على مفاتيح البيانو مستشعرا مع كل نوتة ذكرى مؤلمة، كصدود حبيب، كإخلاف وعد باللقاء، وتند منه فجأة نوتة أعلى كفرحة مستلة من كومة خيبات، ثم تحاصرها الظنون فتخفت بذبول كتلاشي الصدى.

وتتقدم خطوات الجنازة.. أكفّن الدفعة الأولى في ثوب واحد بلا غسل، وأنزلها بتؤدة إلى لحد عميق من الماضي، لا تسعفني

الذكريات بأسمائها، فأهيل عليها حفنة استشراف أمل، وتلوح من عينك نظرة شفقة، فأسمع عتبك يخاطب نفسي المتوجسة:

حنانيك هذا الحزن وهم خلقته ومثلك لا يرضى بوهم يسوقه

تقفز من مسيرة شوبان ثلاث نوتات مرحة، فأبتسم، ثم أفك عقد كفن الدفعة الأخرى، وأواريها بين طبقات التأمل، يتململ طفل أحزان لم يبلغ الكرب بعد، ويهمس:

الأحزان لا تموت.

فيهتف صوتك قامعا تمرد الحزن الصغير:

سيهزم هذا الحزن حتى كأنه لتجتث من عمق الفؤاد عروقه

قطعت آنجيلا المسيرة، بدخولها تتمايل طربا، وبلا مقدمات وضعت سماعات عملاقة على رأسي، وأعادت أغنية يبدو أنها كانت تسمعها إلى بدايتها، وتركت الهاتف فوق رجلي السليمة، ولم تقل شيئا.

همست بيث هارت في أذني متملكة مجامع سمعي:

«قل لها إنك لي

أنك استعدت بصيرتك بعد العمى

وقد قضي الأمر

يكفيني أن تناديني

فأسبق نفسي عدوًا إليك

وأرتمي عائدة بين ذراعيك

قل لها.. إنك لي وحدي».

كان همس بيث هارت عميقا، لا يخالج مستمعه شك أنه موجه إليه مباشرة، تتسلل في خلفيته نغمات من الجاز الهادئ، مواكبة النبرة المترجية للأغنية الطافحة بالصدق.

وأنا أصارع رغبتي في مناداة آنجيلا لسؤالها عن مغزى اختيار هذه الأغنية، فقد عانيت طويلا من تقمص كلمات الأغاني وشخصيات الكتب، ولم أتغلب على ذلك إلا بجهد مضن، فلا شيء أكثر إفسادا لنفس الإنسان من توهم معنى ملتبس في كلمات لا يعلم من خطها بوجوده.

لكن حين تختار امرأة مهووسة بموسيقى الروك الصاخبة أغنية بهذه العذوبة في صباح ربيعي وتجبر مريضا عائدا من جنازة أحزانه على سماعها، فلا بد من استفسار.

وانتشلتني بيث من صراعي صادحة، وكأنها تجيب أسئلتي التائهة:

«قد يغمرني نهر جارف

أو يكون في العتمة تنين

لكن لا شيء يخيفني أكثر من صمت قلبك».

يا لورطتي!

هل تريد آنجيلا أن أصرح لها بحبي؟!

ولكني سبق أن عاهدت نفسي أن لا أمنح أملا زائفا لقلب ينتظر.

جاء المقطع الموالي حاسما في قطع حبل التردد، عادت بيث إلى نبرتها المهددة:

«إذا أردت الاحتفاظ بي

إذا أردت معرفتي مرة أخرى

فخذني إليك

انتشلني من قاع المحيط المضطرب

وقل لها إنك لي».

لم تكن آنجيلا مبالية بالحرب الدائرة في أعماقي، لقد قدحت الزناد وتركت روحي تشتعل، وتوارت خلف الستارة ترتب سريري، وتمسح بقايا يوم لم أعد أذكر ما كان فيه، لمحتها وهي تقلب كوب الصبارة الموضوع على الطاولة، كأنها تبحث عما يدل على مصدره، ثم أعادته إلى موضعه مزيلة بعض الحصى من فوق الطاولة.

«لن تفوز بك أبدا

لأني لن أرفع الراية البيضاء

مهما بذلت من حياتي

سأبقى صامدة هنا

قل لها إنك لي

وإنها كانت مجرد مزحة

ولكنك لي وحدي».

ثم تراخى صوت بيث متراجعة من النبرة الآمرة إلى صوت خاشع متبتل برجاء، مرددة:

«قل لها إنك لي.. قل لها إنك لي.. لي وحدي.. قل لها...».

وكأنها تعرف بالضبط متى ينتهي آخر مقطع من الأغنية، تقدمت آنجيلا في خطو أقرب إلى السرعة، وأزالت مقابس جهاز النطق من

صدغي في تصرف بعيد عن المهنية وأشبه بالاستفزاز، وأنا أحدق فيها مستغربا من سلبي نعمة تمنحني إياها علبة إلكترونية، إلا أنها هزت رأسها في حركة طفولية، وصالبت ذراعيها تحت نهديها رافعة إياهما سنتيمترا واحدا، ثم انسابت أغنية أخرى من السماعة.

لا أعرف إن كانت برمجتها مسبقا أم أنه تتابع من التطبيق الذي تستمع فيه إلى الأغاني، إلا أن كلمات الأغنية أخذتني من نغمتها الأولى إلى عالم ليس فيه سوانا.

مر المقطع الأول من دون أن أتذكر منه حرفا، فقد كانت روحي مرفرفة فوق سريرك تخشى أن يميل رأسك عن الوسادة فتستيقظي قبل أذان الفجر.

ثم غمرني صوت إيلا هندرسون وهي تحلق في عالم الأرواح جاذبة إياي من أعماقي:

«سوف أقاوم صمتي حين تخشى الكلمات مغادرة مخدعها
فقد تعلمت منك أن أمنحها الحرية
فقلبي متحفز للانفطار
لأني أشعر أني جاهزة للحب
وأريد أن أكون لك
أقولها في نفسي كل يوم
لكن أريدك أن تكون على يقين الآن
أني ملكك وحدك».

هل هذه الأغنية جواب للأولى، وما علاقة بيث هارت بإيلا

هندرسون، وما علاقة مريض بالتصلب اللويحي المتعدد بكل ذلك؟

جلست آنجيلا على حافة الأريكة المقابلة للكرسي الذي أجلس عليه، وكانت عيناها تشعان ترقبا، ولأول مرة أكتشف أن عينيها خضراوان، وتلك واحدة من نقاط ضعفي.

ثم انهار صوت هندرسون وهي تستميت تذللا:

«حين تُفقدني أثقال الحياة توازني

امدد ذراعيك إليَّ في ظلامها

فسأستعيد نفسي

ولن يجعلني أي شيء أتداعى».

وعند هذا المقطع رفعت آنجيلا السماعة الثقيلة من فوق رأسي، ووضعت جهاز النطق في حضني، وغادرت من دون أن تلتفت إلى الخلف.

تمايحت الدقائق كسلى في فرارها نحو الأبد، وأفاقتني نوبة صداع تكاد تقسم وجهي، وفقدت كل الجمال الباذخ الذي عمدت فيه دقائق صباحي الأولى، فتحاملت إلى السرير المحفوف بالعوارض كسجن شديد الحراسة، أمرت المساعد الآلي بالتوقف عن تعذيب موسيقى شوبان التي ما زال يتنقل بين أفانينها المخضلة فرحا، فالموسيقى أجمل من أن تملأ الفراغ.

أيقظتني فيث لتناول جرعة الدواء المسائية، لم أدرِ كم مر من الوقت قبل قدومها، لكن النظرة الأولى من النافذة أوحت أن الليل

توغل كثيرا منتصرا على الشمس في إحدى معارك حربهما الأبدية، كانت السجادة المنشورة على بلاط الغرفة تناديني لائمة على تفويت مواعيدها، فمنذ استطعت الوقوف والسجود وجدت في لحظات الانحناء قربا يريح النفس من ضنى الأيام المشبعة أسى.

وعلى الطاولة كانت سلة أزهار كبيرة تشغل المساحة كلها، وتموضع الحاسوب الذي يذكرني بهويتي وماهيتي خلفها تكابد صورتك التسلل بين فروع الباقة كطفل ينظر من ثقب الباب، واختبأت بين الأزهار قصاصة صغيرة تقول:

«شكرا لأنك أعدت إليَّ روحي، كن بخير.. بريجيت».

قرأت القصاصة واستعدت ذكريات هذا الصباح، باحثا عن وجود لها في تفاصيله، فخابت مساعيَّ.

سألت فيث إن كان اليوم تضمن لقاء مع بريجيت فأجابت بالنفي، مستدركة أنها جاءت لتوديعي، فقد رقيت إلى منصب أعلى ولم تعد تتولى العناية بالمرضى، ثم صمتت ثواني محاولة استقراء رد فعلي الذي لا يبدو أنه خيب ظنها حيث مرت عبارتها بلا أثر، ثم أضافت كما أن كلير عادت من إجازتها، وقد جاءتك اليوم لكنك كنت نائما فتركت لك هدية على الرف الثالث يسارا.

ـ ومن تكون كلير؟ سألتها بنبرة بينة الصدق، فارتسمت على وجهها دهشة وارتها خلف ابتسامة كفلق الفجر في هذا الليل القاتم، وسحبت كرسيا منشغلة بتفكيك أسلاك جهاز قياس الضغط، ثم نظرت إليَّ بعينين اكتشفت حورهما لأول مرة، وقالت:

ـ لا أصدق!.. كلير.. كلير إخصائية علم النفس الإيجابي التي تعالجك منذ أشهر، ثم وكأنها تنبهت لفقدان ذاكرتي، وقالت: مهلا.. هل تذكرت من أنت ولماذا أنت هنا؟

قلت: لا.. وبكل ما استطاع جهاز النطق أن يمد تلك الـ«لا» لتوحي بالجدية.

وضعت فيث يدها على قلبها، شاهقة تلك الشهقة التي لم تتمالك كتمانها، وبعثرت الطاولة خلفها فأسقطت الكوب الذي يحوي الصبارة، لكنها لم تولّه اهتماما، ثم مدت إليَّ جهاز الحاسوب الذي كانت شاشته مقسمة إلا ثلاث خانات تتربع في وسطاها صورة لنا ونحن في مطعم أمريكي للوجبات السريعة.

ظلت فيث قرابة الساعة وهي جالسة تراقبني وأنا أقرأ الملف، ومع كل فصل تتسع ذكرياتي كبطارية هاتف في شحن سريع، لكن الكلمات المكتوبة لم تساهم في تشكيل وجوه الشخوص، فقلت لها: هل أنتِ آنجيلا؟

ترقرقت عيناها بدمع أسال الكحل الخفيف الذي كان على جفونها، وتماسكت وهي تضع يدها بحنو فوق راحتي، وتقول: لا، أنا فيث، سأكون ممرضتك الوحيدة هذا الأسبوع، وسأقيم في الغرفة المجاورة في انتظار إيجاد بديل مناسب لآنجيلا.

ـ هل هي في إجازة؟

ـ لا، آنجيلا قدمت استقالتها اليوم من المستشفى، ووعدت أن تعود إليك غدا لتوديعك، فقد عثرت على حب حياتها، وستتزوج الأسبوع المقبل، وقررت ترك العمل والتفرغ لرعاية زوجها.

ـ مهلا دعيني أكمل قراءة النص.

كنت أبحث في النص عن تفاصيل حياتي، لماذا أنا هنا؟ وماذا كنت أفعل قبل ذلك؟ فلم أجد فيما قرأت إلا أنت، لقد كان وجودك في حياتي هو البقعة الوحيدة المضيئة في الذاكرة.

نظرت إلى فيث، وقلت:

ـ يبدو أنكِ كسرتِ الكوب الذي كان سيمنحني إجابات مقنعة.

ـ سآتيك بغيره لا تشغل بالك.. قالتها وهي تغالب الابتسام وتجمع في منديل ورقي فتات الحصى والتربة المنسكبة على البلاط الناصع.

ساعدتني فيث في النزول من السرير، وقالت: سأكون في الغرفة المجاورة إن احتجت شيئا في أي وقت، وتركتني أواجه أسئلتي.

على الرف الملاصق لجدار الغرفة، وُضِع كيس هدايا بعرى مزخرفة بشريط أحمر، بدا ثقيلا وأنا أنزله، ربما لخور أصاب ذراعي السليمة، فالذراع اليسرى كانت متدلية عارية من رباطها الإلكتروني الذي يوصل إليها أوامر الجهاز العصبي. وضعت الكيس على الأريكة، واستعنت بأسناني لفك عقدة الشريط المحكمة، فوجدت فيها مجموعة كتب من روائع الأدب العالمي، وصورتين ورقيتين؛ في إحداهما أجلس قرب نافورة على شكل صقر مجنح، وفي الأخرى شابة تجاوزت الثلاثين تفرش شعرها على أرضية معشبة وعلى بعد خمسة عشر سنتيمترا أضع رأسي على وسادة قطنية بيضاء، وأحدق في الكاميرا التي يبدو أنها كانت تحملها في يديها ملتقطة الصورة من علٍ، وقد كان وجهي مشرقا مكتمل الهيئة لا يشوهه شلل نصفه، وافترت شفتاي عن ابتسامة عريضة زادها ضوء المصورة لمعانا.

وعلى صدر السيدة بطاقة مستطيلة كُتب عليها كلير.

هذه هي كلير إذا، كلير التي تشبهك حين تندهش، وتحلين مكانها حين نتحدث عن الحب، كلير التي غادرتني قبل أسابيع بلا وداع تاركة إياي بين يدي بريجيت، كلير التي تعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي، تحسبت لفقدان ذاكرتي فوضعت لي صورتنا معا في الحديقة لأتذكرها.

من النافذة الزجاجية كنت أراقب ساحة الحديقة، فاستقرت عيني على شاب يعانق سيدة في عمر أمه، يغمره حضنها فيختفي، لا يظهر لي منه إلا رأسه مختبئا بين منكبها ورأسها الحليق، استدعى المشهد ذكرى غائمة لم أتمكن تبيانها، هل عانقتك؟ هل سأعانقك يوما؟ هل أعدت إلى بريجيت روحها عبر عناق في المزرعة؟ لا أذكر.

رجعت إلى النص بحثا عن موقف يشجع تلك الذكرى الخجول على مغادرة كهفها، فلم أجد فيها شيئا، وفي غمرة بحثي دخلت فيث حاملة ملابس رسمية أنيقة، وقالت:

ـ سنقيم اليوم حفلة وداع لآنجيلا، ستكون قصيرة لا تتضمن إلا كلمات إشادة وتقديم هدايا، وقد تكون في ختامها جولة رقص ثنائي، وارتأيت أن أخبرك فربما تود أن تودعها برقصة.

ـ أظنها سبق أن طلبت مني ذلك وذكرت شيئا عن الحفلة، لكن لا أعتقد أني سأفعل.

ـ عموما هذه الملابس مناسبة لمقاسك في حال غيرت رأيك، نادني حين تريد عقد ربطة العنق.

بحثت بين الأدراج عن صندوق صغير ورد ذكره في النص، فربما أجد فيه صورة لك بمقاسات السفارة الأمريكية، وسلسلة فضية منحتني إياها يوم تلامست يدانا عن غير قصد، ولعلني أجد فيه ما يعيدك إليَّ أو يعيدني إلى نفسي، لم يكن في الأدراج شيء غير الملفات الطبية، وقليل من الأوراق المبعثرة، ومشبك شعر ذهبي ربما نسيته مريضة كانت تحتل هذه الغرفة قبلي فلم يجد من يسأل عنه بعدها.

هل ستطالبين بأغراضي حين تصلك هذه الرسالة؟

١٥

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

امرؤ القيس

لقد افتقدت آنجيلا.

المكان قاسٍ في غيابها، روحها الطائفة في عوالم المرح كانت تزين قتامة الوقت، فهي الدليل القطعي أن النعمة لا تحمد إلا بعد فقدها، فعندما نفارق من يسكن جوار القلب لا يكون ألم الذكريات المشتركة معه أخف من ألم ما لم يحدث.

نسترجع ذلك الشريط المتقطع من الأحداث، نأسى على قصر لحظات البهجة، ونضيق ذرعا باستسلامنا لخمول النفس، وسيطرة التردد في موقف كان الحسم فيه واجبا.

لم آتِ إلى حفلة توديع آنجيلا، كنت على مشارف الخروج، ارتديت بذلة أنيقة وربطت فيث فراشة سوداء على ياقة قميصي، وحين رأيت نفسي في مرآة المصعد، لم أصدق أن الواقف في هذا الصندوق المتدلي بأسلاك الحديد المكهربة أنا.

أمضيت دقائق من دون الضغط على زر الهبوط، حتى اهتز المصعد صاعدا إلى الدور الرابع حيث مكاتب الإدارة، تركته على

سجيته، حتى توقف فاتحا أشداقه وأنا لاهٍ في لحظة نرجسية أتأمل هذا الوجه المشلول نصفه، البيضاء لحيته، وأزيح جُمة شعري الأشهب الحريري عن كتفي، محاولا تثبيت الحد الفاصل في مفرقها، ولم أنتبه لدخول شخص غيري إلى المصعد إلا حين لامست يدٌ كتفي قائلة:

ـ هل يمكن أن أسند رأسي هنا؟

نظرت في انعكاس المرآة فإذا بريجيت تملأ وجنتيها ابتسامة صافية، وتلامس أصابعها ذات الأظافر المطلية بلون شفاف والمقصوصة حديثا زر إغلاق الباب من دون تحديد الوجهة.

ـ لقد حجزت كتفي لرأس آخر.

أجبت بلا تردد، ثم تبادر إلى مخيلتي سؤال عن هوية ذلك الشخص، هل قصدت آنجيلا التي دعتني إلى مراقصتها قبل أسبوع، ويقام على شرفها حفل التوديع؟ أم قصدتك أنت، أنت التي لم أحظ يوما بلمسة من أناملك، ولا أعرف لون شعرك، ولم يسبق أن تحدثت معك حول الرقص، أو اجتمعنا تحت سقف واحد منفردين، أحرى أن أضع يدي على خصرك وتستقر يدك فوق كتفي وتتشابك أصابعنا في عناق.

أم كنت أعني كلير، كلير العائدة من جولة في العالم لم تعطني بعدُ تفاصيل ما لاقت فيها، كلير التي منحتها تذكرة مزيفة باسمك إلى قلبي، فتحايلت على نقاط تفتيش المشاعر، وتوارت عن عيون الرقابة القلبية، وقاسمتني فصول فيفالدي وسطونا على رسالة من بيتهوفن في طريقها إلى إليس؟

اشتغل دماغي بكفاءة عالية في تلك اللحظة مستعرضا كل الاحتمالات مثل حاسوب خارق، من دون أن يستقر على إجابة.

لكن إجابتي الجافة لم تكن كافية لردع بريجيت المتحررة من قيود أخلاقيات الطبيبة، فوضعت يديها على كتفي وحركتهما في مسار دائري، وجدتني أستجيب له بلا وعي، وحين تقابلت العيون الثلاثة، رجفت عيني اليمنى السليمة في حركة عصبية طالما ضايقتني، لكن بريجيت أعمق إدراكا من أن تفسر تلك الحركة بأكثر من رد فعل عصبي.

وضعت سبابتها على فمي وقالت:

ـ لنثر على النمط، لنجرب أن نقتنص لحظة فارة من المجاملات.

ولامست زر فتح الباب متقدمة وهي تسحب يدي المشلولة، فرافقتها كالمسرنم بلا رد فعل ظاهر.

مررنا بمكتبها عبورا إلى شقتها حديثة التأثيث، ولمحت اسمها فوق طاولة المكتب فتذكرت أنها صاحبة الباقة.

كانت على أرضية الصالة أكوام مكدسة من الكتب في أكياس مفتوحة، يبدو أنها لم تجد الوقت لترتيبها بعد، وعلى إحدى الأرائك أوراق متناثرة، تجاوزناها إلى شرفة مطلة على بِركة مضاءة بألوان متلألئة، وفيها مقعدان متقابلان تفصل بينهما طاولة واطئة وُضِعت فوقها منفضة سجائر.

ـ كيف أعدت لك روحك؟

رميت السؤال وأنا أضع يدي على الشرفة، وأتابع تراقص المياه

في البِركة، وأزيح فكرة القفز من الطابق الرابع كما تزاح ستارة كثيفة في يوم ربيعي.

فتحت بريجيت علبتَي شاي مثلج ومدت إليَّ إحداهما وقالت:

ـ هل تريد الإجابة البسيطة أم المعقدة؟

ـ أريد الإجابة الصادقة.

ـ هل تذكر يوم كنا في المزرعة، وحدثتني عن قصة «وانطلقتم مساء»، تلك القصة التي تروى عن عاشق عاد بعد عام من فراق حبيبته وبادرها بالسؤال في أول لقاء: «وانطلقتم مساء؟»، لأنها كانت آخر كلمة تقولها قبل فراقهما؟

ـ تذكرت الآن.

ـ لقد منحتني تلك القصة ـ فضلا عما حدثتني به عن تعلقك بامرأة في بلادك وأنك تكتب لها كل يوم، وتحدثها حين تكون وحيدا، وتستحضرها روحا وجسدا وتنام على حديثها المتقطع ـ كل ذلك جعلني أدرك أن السعادة في الانتظار، وأن الزمن لا يُحسب بعقارب الساعة بل بقيمة ما داسته تلك العقارب.

مضى الحديث مناسبا تتنازعه الرغبة والإصغاء، وتتخلله ضحكات غير مكتملة، وزفرات حرى ووعود مخلوفة.

وهأنذا أجلس على الأريكة الزرقاء ألتحف رداء أبيض وأتأمل ربطة عنق لا أعرف أين سقط مشبكها الخلفي، وأتمنى لو كانت آنجيلا هنا، فهي الوحيدة التي تستطيع أن تأتيني الآن بسيجارة، مخالفة قوانين المستشفى، أتساءل هل ستسامحني على تفويت حفل توديعها؟

من المساعد الآلي تملأ الفراغ أغنية موغلة في وصف حالتي، لفنانة سودانية بعمرك تقريبا يقول المقطع الأول منها:

«أنا قاعد أموت

لمَّنْ مواعيدك تفوت

لمَّنْ أكون مستني شوفتك من زمن

ضحكاتنا يملاها السكوت».

هل أرسل المقطع الموالي لآنجيلا؟ وبأي وسيلة؟ وما قيمة أن أخبرها بشوقي إليها، وهي التي سلمت قلبها لرجل آخر إن صدق ما قالت فيث، ولم يكن حسد أقران.

لكن فاطمة عمر تلك الفنانة التي تشبه فنانات بلادي بموسيقاها الخماسية، وصمتها بين المقاطع مفسحة المجال للحن كي يأخذ حقه من السمع، صدحت مبالغة في صوفي:

«خنقتني عبرات شوقي ليك

أنا كنتا جاييك مشتهيك

متمني أتعمق دفاك

يسكرني عطرك وارتويك

ساعة صفا ما فيها صوت».

ثم تصمت كأنها في حضرة صفي الدين الحلي في ليلة أندلسية وهي تحاكم أداءها على ميزانه حين يصف ـ فيما ينسب إليه ـ مجلس طرب لا يشبه حالي:

شجى وشفى لما شدا وترنما فأنعس أيقاظا وأيقظ نُوَّما

أغن كأن العـود ضم صـدى له يحاكيـه في ألفاظـه إن تكلمـا

إذا رتلت ألفاظه الشعر معربـا أعادت لنا أوتاره اللفظ معجما

إلا أن ذلك الصمت لا يطول كثيرا، وتستحثها الأوتار فتتنهد مستسلمة لقدرها مثلي:

«مش مشكلة، دنيتنا مين البفهما

إيه المصير لما الأرض تتمنى يوم عشق السماء

يتلاقو كيف؟يتسالمو؟

الفكرة ذاتا مسممة».

وهل هناك أشد سمية من ملاحقة قلبي التائه لكل جميلة، باحثا فيها عن شيء منك؟

لقد عثرت عليه في قاعة الانتظار وفي الحديقة وفي كل مكان تتاح له رؤية عدد من البشر وهو يجمع أجزاء من أجسام المارة والمنتظرين في مهمة فرانكشتانية ليشكل منها صورة متكاملة لك، فيعجب بساق امرأة وأنف أخرى، ويد ثالثة وخصر رابعة، ثم تتكاثر عليه المتشابهات، فيبعثر ما جمع بادئا من جديد كطفل دمرت الأمواج قلعته الرملية.

نهرته عن ذلك مرارا، وأجلسته في خلوتنا مهددا إياه بالسجن في هذه الغرفة وحيدا لا يرى إلا وجوه الممرضات، لكن قلمه رفض تسجيل ملاحظاتي وعصاني كما فعل قلم فاطمة عمر، ولذلك فهمتها عميقا حين قالت:

«مالو القلم ما راضي بي

وحروفي ليه متألمة

من عمري دا الضائع معاك

وأشواقي تبكي وفي سكوت

أنا قاعد أموت لمن مواعيدك تفوت».

كنت أريد أن تشاركني آنجيلا جلستي هذه، وأترجم لها مضامين هذه الأغنية السودانية، وربما بكت كما فعلت مع أنغام ديمي بنت آبه، والأهم من ذلك كنت أريد أن أجدد لها طلب الاتصال بك حين يتوجب عليها ذلك، وربما راقصتها بنصف جسدي، وهمست في أذنها بذلك الطلب في لحظة تكون روحها مشرقة فلا تنساه أبدا.

* * *

لا أعرف إذا كنت ستتمكنين من قراءة هذه الأوراق، فيدي الواهنة بالكاد تستطيع أصابعها إمساك القلم، لكني ما زلت مُصرا على الكتابة لك، فلن أتخلى عن أملي الوحيد في الحياة، أمل أن تصلك هذه الرسالة فتعرفي مقدار حبي لك، وأن مصائب الدنيا لن تجعلني أنساك.

لم تحتفظ آنجيلا برقم هاتفك ـ كما كنت متوقعا يوم أعطيتها إياه ـ ولم تسجل فيث بريدك الإلكتروني، ولا رقم الهاتف الذي كان مكتوبا على شاشة الحاسوب، لم يعد الحاسوب ذاته موجودا، فقد جمعت فيث شظاياه بعد نوبة غضب انتابتني حين اكتشفت أعظم فاجعة ألمت بي منذ جلبت غصبا إلى هذه الحياة.

أفقت قبل فترة لا أعرف مداها بعد غيبوبة يقول الفريق الطبي

إنها دامت قرابة أسبوع، كنت فيها في غرفة الإنعاش، دخلت ما يشبه الموت السريري، ولأول مرة أحمد الله أني لم أمت، فإن مت قبل أن أكمل لك هذه الأسطر فستكون حياتي بلا معنى، إنها بلا معنى على أي حال لكونها خالية منك.

مساء ذلك اليوم الذي عدت فيه من لقاء بريجيت وبحثت عن صندوق المتحف الصغير، طلبت من فيث أن تسأل آنجيلا عن رقم هاتفك، لكنها ادعت نسيانه، لا أعرف إن كان ذلك صحيحا أم أنها تنتقم مني بخذلاني في أول لحظة أحتاجها فيها، لم ألق عليها باللائمة، فقد كنت أستحق الخذلان يوم قررت أن أمنح ثقتي لشخص بمجرد أنه بدا طيبا ومتعاونا.

حاولت استعادة الدخول إلى بريدي لكنه تعطل لطول المدة التي قضاها مهجورا، وطلب تأكيد الدخول عبر رسالة نصية أرسلها إلى هاتف لم أعد أذكره، ربما كان أحد الهواتف التي تواصلت معك بها، ومن المؤكد أن صاحبه الآن لا يعرف من أكون، وربما بقي بلا صاحب.

فشلت كل محاولات الاستعادة، فحالة البارانويا التي عشتها بداية هذا المرض جعلتني لا أثق في أي طرف ثالث، لم يكن هناك أي شخص على هذا الكوكب يمكن الاستنجاد به سواك، وقد فقدت آخر خيط يوصل إليك.

وفي لحظة يأس طامة استحوذ عليَّ شعور بالعدمية؛ ما قيمة كل هذا؟ ما فائدة التعلق بعلم لا يستطيع تعويض جوهر الإنسان؟

وما قيمة الإنسان إذا كان بلا ذاكرة؟

رفعت جهاز الحاسوب إلى أقصى ما يسمح به طول قامتي ورميته بما أوتيت من قوة ـ على قلته ـ باتجاه عوارض السرير الفولاذية، ولم أكتفِ بذلك، واصلت سحقه على السرير حتى لم تعد فيه قطعة تزيد على خمسة سنتيمترات، لم أفكر في تلك اللحظة في أنه كان الشيء الوحيد الذي يربطني بالعالم، وأنه كان خزان ذكرياتي، فعلت الأمر ذاته بالمساعد الآلي الذي كان بجانبه.

سمعت فيث من غرفتها جلبة الخراب في غرفتي فاندفعت من الباب وهي تصرخ طالبة النجدة، وحاولت أن تمسكني لكن قوتها البدنية كانت عاجزة أمام الهياج الذي كنت فيه، رميت علبة النطق الغبي في حوض الحمام الذي كان بابه مواربا، وقطعت بذلك آخر فرصة لتفسير ما يجري لها، ثم سحبت بكل قوتي الأسلاك الكهربائية المتدلية من عمودي الفقري والتي كانت تسمح بالتواصل بين المخ وأطرافي المشلولة، وحين هويت متداعيا كانت كلير تدخل سابقة فريق التمريض الراكض إلى غرفتي، فهوى رأسي على صدرها وكان آخر شيء رأيته ذلك السهل المنحدر بين تلتين تحت قلادة مرصعة بجواهر خضراء لمعت تحت الضوء.

تفرغت كلير بأمر من بريجيت لرعايتي، ولم تتمكن من إقناعي بعد بالعودة إلى حياة الترقيع التكنولوجي التي أمضيت فيها الأشهر الماضية، فقد رفضت جهاز النطق وأجهزة الاستشعار والتعامل مع الحواسيب وحتى الهاتف، وقررت أن يكون تواصلنا عبر الكتابة، وسأبقى مُصرا على ذلك ما لم أستعد أجمل ما فقدته.

يا إلهي.. لم أستطع بعد أن أستوعب ذلك!

كيف تكون انتقائية الذاكرة بهذه القسوة والهمجية، كيف لم تحذف كل هذه الزوائد التي لا طائل من ورائها، وتبقي لي اسمك؟

كيف يعقل أن أتذكر كل شيء حدث بيننا من أول رسالة إلى آخر كلمة ثم لا أتذكر اسمك؟

ولماذا أعجز أن أختلق لك اسما من بين كل الأسماء التي أعرفها والتي تزخر بها القواميس، حتى حين قرأت أسماء جميع المسجلين في اللائحة الانتخابية التي تضم ـ نظريا ـ كل الموريتانيين ممن يحق لهم التصويت لم أعثر فيها على اسم يشبهك، هل قاطعت التسجيل في الانتخابات عمدا حتى تحرميني من العثور عليك؟ لماذا لم أجد أيا من الأسماء المألوفة وحتى الغريبة يوحي لي بأي شيء عنك؟

لم تكن تلك وسيلتي الوحيدة، فإصراري على استعادة اسمك أخرج كلير عن طورها، وباتت تعتبره تحديا شخصيا لها في مهنتها.

اكتشفت بداية أنها كانت تسجل كل محادثاتنا في جهاز صغير، ولم يطل انزعاجي من ذلك على اعتبار أنه جانب أصيل من وسائل عملها في التحليل النفسي، فطلبت منها أن تعطيني كل الأشرطة الصوتية لأسمعها من جديد، إذ لم أصدقها حين قالت إني لم أذكر اسمك يوما لها، حتى في اللحظات التي طورت فيها الإزاحة الشعورية وحدثتها على أنها أنت.

جربت معي التنويم المغناطيسي ورافقتني إلى أماكن شبيهة بكل الأماكن التي وردت في التسجيلات.

وفي ليلة ربيعية تسح فيها الغيوم دموعا متقطعة لتغسل أدران

الذكريات، كنا نراقب القمر المتفلت من حجب السحب، وتسري في مسامعنا أنغام خفيفة من مقطوعة لباخ، أسندت رأسها ذا الشعر الحريري الفاحم على صدري، وغاصت بيدها في مساحة بين أزار قميصي كمن يبحث عن قطعة نقدية في ظلام دامس، ثم وضعتها بثبات في ملتقى أضلاعي وإن كانت أكثر ميلا إلى اليسار وقالت:

ـ أما آن لهذا الحاجب أن ينام قليلا؟

كنت أخلل شعرها المسترسل، وأمرر يدي على كتفها وذراعها تماشيا مع أنغام المقطوعة، ولعل تلك من اللحظات القليلة التي نعمت فيها بعودتك في روحها، فأملت رأسها قليلا باحثا عن عينيك، لكنها حين رفعت بصرها إليَّ وشفتاها تتذللان توسلا، وتتزايد أنفاسها حرارة واقترابا، ورأيت عينيها تذوبان شهوة، شعرت أن في المشهد شيئا نافرا؛ إنها شهلاء، وعيونك حين غادرتك آخر مرة كانت سوداء.

مررت إصبعي بارتجاف فوق شفتها وعلى خدها العلوي، وهويت برأسي لأقبلها، لكني فقدت الرغبة في ذلك فجأة، كمن استيقظ من حلم على وشك الاكتمال.

لم تكن كلير ممن يمكن أن يستغفل، رغم أني افتعلت العطاس لأبرر إبعاد وجهي عنها، لكنها كانت أكثر دراية بي مني، فانتفضت واقفة كأن ماء ساخنا سكب فوقها:

ـ هل تجد متعة في رفضي؟ لقد تجاوزت معك كل الحدود رضيت أن أكون ممثلا بديلا لبطلتك المجهولة، تحملت كل سخريتك ونفسيتك المريضة، وقد آن الأوان لأخبرك حقيقتك.

لست سوى محدث نعمة فارغ، يتبجح بقدرته على قضاء آخر أيامه في هذا الفندق الاستشفائي، ويستغل القلوب الرحيمة، ويفرغ مشاعره الزائفة والمكبوتة في كل من يلقاه.

لست واثقة حتى من وجود هذه السيدة التي تدعي الغرام بها، ولا أصدق أن شخصا بشهوانيتك يستطيع أن يصمد أمام إغرائها يوما واحدا أحرى تسع مرات.

من تظن نفسك؟ أخبرني، كن صادقا مرة واحدة في حياتك، أخبرني من تظن نفسك، لترى فيها هذا الدونجوان القادر على إغواء كل امرأة في طريقه.

لقد استغللت تعاطف آنجيلا معك حتى اضطرت لترك عملها مخافة ارتكاب جريمة، وبكلامك المعسول وحكاياتك السخيفة عن العشاق العرب المتخلفين أغويت بريجيت، وجعلتها تصدق أن حبيبها الذي تركها قبل سنوات وتزوج صديقتها سيعود إليها يوما، ولا أعرف ماذا فعلت بفيث، ولا ماذا كنت تفعل قبل أن يصرعك هذا المرض.

هل تريد إبلاغ الإدارة، سأوفر عليك عناء ذلك سأبلغهم بنفسي أنك لا تستحق الإقامة في هذا الجناح، فهذا الجناح خاص بالمساكين المشرفين على الموت الفاقدين سندهم، العاجزين عن فهم معنى الحياة، أما أنت فمجرد ثري زير نساء متكبر ومغرور، يتمارض ليحصل على مراده، تبا لك.. هل سمعتني تبا لك.. فتخسف بك الأرض.

لم أكن قادرا على الكلام بطبيعة الحال، ولم أشعر بأي حنق

على كلير، فقد تحملت فوق طاقتها، ولولا دخول فيث حين سمعت صراخها لربما ارتكبت فعلا تندم عليه أكثر من الكلام، لكن فيث بحكمتها سحبتها بهدوء إلى شرفة غرفتها، ولم أسمع ما دار بينهما إلا أن فيث عادت إليَّ وهي تقول:

ـ عليك أن تعذرها، فقد كانت ترى فيك عوضا لخسارتها، حيث مرت في إجازتها بالمكان الذي توفي فيه خطيبها، ومنذ ذلك الحين وهي تنام بالمهدئات وتتناول كثيرا من الكحول، وقد فرغتها بريجيت للعناية بك لكي تخفف عنها أعباء متابعة المرضى الآخرين، ولأنك أكثر المرضى في الجناح قدرة ووعيا.

أعادتني فيث إلى سريري، وأعطتني الأوراق والقلم، وها أنا أكتب هذه الأسطر في وقت متأخر من الليل، وغدا موعد العملية التي يرى فيها الأطباء أملا للشفاء.

وافقت على العملية رغم أنها علاج تجريبي دخل لتوه مرحلة التجارب السريرية على البشر، وتقوم فكرته على تكثيف موجات فوق صوتية باتجاه نقطة معينة من الدماغ، لتحدث ثقبا في الغمد الميالليني وتوصل الأدوية موضعيا إلى المناطق المتضررة بدقة.

ووفق جدولهم الأولي ستستغرق فترة العلاج ستة أشهر، وإن نجحت كل مراحلها فسأستعيد قدرتي على الكلام والحركة والبصر، وهناك أمل غير قطعي أن أستعيد ذاكرتي، أو على الأقل أكون قادرا على تكوين ذكريات جديدة لا تمحى مع أول نوم.

نسبة النجاح في التجارب على الفئران تجاوزت ثمانين في المائة، وسأكون أول بشري تجرب فيه.

يتحدر الآن خيط عرق مستقيم عبر عمودي الفقري، وتسري في جسدي قشعريرة تترافق مع النبضات الكهربائية المتلاحقة التي تهز جسدي قادمة من أعلى رأسي إلى قدمي اليمنى، وأشعر أن قلبي يحاول الخروج من قفصه، مؤشرات جهاز جس النبض ترتفع كعداد هاتف قديم في مكالمة دولية.

أظن أني استعدت شعور الخوف، لا أعرف مم أخاف الآن بالضبط، هل أخاف من عجزي عن إكمال هذه الأوراق، أم أخشى الموت وحيدا مجهولا في مكان لا يعرف عني سوى اسم مكتوب على وثائق لا تنتمي إلى حيث ولدت، أم أني أتوجس من نهاية حلم قدر له أن يتوقف قبل الاكتمال؟

أغمضت عيني دقائق أستعيد فيها أجمل لحظة في حياتي، فكانت أول لحظة قفزت من حطام الذكريات، تلك اللحظة التي كنا فيها منفردين في مصعد الفندق، وكنت تخشين التأخر عن موعد رحلتك، وتحملين في يدك حقيبة أرجوانية اللون وتذكرت تلك النظرة التي استرقت إلى الكاميرا المركبة في سقف المصعد من دون أن تتفوهي بكلمة، لكن عينيك كانتا تقولان: حتى في اللحظة التي يجمعنا سقف واحد تحرمنا التكنولوجيا من السعادة.

ثم زاحمتها لقطة أخرى وأنت تفتحين فمك بكامل الدهشة، وتضمين باقة الورد إلى صدرك وتصيحين: هذه أول مرة ألمس فيها باقة ورد حقيقية، وأنا أتشاغل بالبحث عن المسار المؤدي إلى الخروج من محطة الوقود، مخافة أن تنزلق يدي إلى خدك الأسيل فتهوي روحي ضائعة في غياهب حبك.

بدأ مؤشر نبضات قلبي بالتراجع ويراوح الآن بين مائة ومائة وعشرين، ونسبة الأكسجين في دمي تتراجع إلى اثنين وتسعين في المائة.

أحاول استعادة مشهد آخر، فتختلط اللقطات بتسارع لا أكاد أدركه: أنت تنزلين من سيارتك عند باب مقهى معزول في الجانب الغربي من نواكشوط.. هاتفك على أذنك وتفغرين فاك مستمعة إلى مكالمة تافهة من عملك.. تزيحين نظاراتك الشمسية وأنت تغادرين المطعم اللبناني.. اهتزازك في الطريق الرملي المؤدي إلى الشاطئ.. ترددين أغنية لا أحبها.. تطلبين سكرا إضافيا من نادل في مطعم تركي.

ترتفع نبضات قلبي مجددا، أشعر بأن طبلتَي أذنيَّ ستنفجران، صوت دقات الأجهزة الطبية المحاط بها سريري بات مضاعفا، الرجفة في جسدي تهدأ قليلا وتخف النبضات الكهربائية مانحة إياي فرصة للهدوء.

هل أخاف من الموت؟

في هذه اللحظة بالذات لا أخافه، لا أريده، ولكني لا أخافه، لقد علمني حبك أن الله رحيم بعباده. إن الحب جزء من الإيمان، لا يستطيع الإيمان مخالطة قلب لم يعرف الحب، وإذا كان الله اختار قلبي موطنا لحبك فقد منحه شرف اليقين بحسن تدبيره، إن الله أرحم من أن يجمع لي عذابين؛ فقدك في الدنيا وعذابه في الآخرة، ولإن كان صبري على ابتلائه بهذا المرض أقل مما يليق به، فإن أرجى عمل أتقرب إليه به هو صبري عنك وصبري عليك.

وعدتني فيث أن تجمع شظايا الحاسوب المتناثرة وتستخرج منها المعطيات المخزنة بأي وسيلة، كانت تجلس هنا قبل قليل بعدما تنبهت لضوء أحمر في جهاز رصد الجسم، الذي له شاشة في غرفتها، فوجدتني أتصبب عرقا ويدي الراجفة تستحث القلم على نهب المسافة بين مقدمة الورقة وظهرها، فربتت بحنان على كتفي وقالت:

ـ لا تقلق، حين تستفيق من العملية الأولى ستجد كل المعطيات التي كانت على حاسبوك السابق موجودة في حاسوب جديد، وحينها ستكون قادرا على التذكر ولن تحتاج هذا الجهد المضني الذي تبذله الآن، وعندما تعود ستجدني عثرت لك على اسمها، أعدك بذلك.

لا تكتفي فيث باسمها تذكيرا بالإيمان، بل تحث عليه، وتصر ابتسامتها المتلألئة على بعثه من رماد اليأس.

سقتني كأسا من عصير الفواكه المشكلة يشبه ما شربناه في المطعم الفرنسي، وأعاد إليَّ ذكراك وأنت تراقبين النادل المتأنق وهو يصب الماء بعدل في كأسينا، وتقولين إن عينه أدق ميزان عرفته، وتساؤلك كم أحتاج من الوقت للتدرب على انحناءته بزاوية خمس وتسعين درجة.

بدأ التنميل يسري في قدمي اليمنى صاعدا إلى رجلي وظهري، وأسمع خشخشة خفيفة في عمودي الفقري كأنها حفيف أوراق يداعبها النسيم، وأصابعي الثلاث لم تعد تقوى على إمساك القلم، تلمع الآن في مخيلتي عيناك الهاربتان من اللقاء الأخير، وشفتاك تتحركان في عرض بطيء وهما تتلامسان لنطق الباء ثم تفترقان

بمسافة سنتيمتر واحد لمد القاف، وتحافظان على المسافة ذاتها فيحمل الهواء منطوق لفظك، ثم يكتمل المشهد مستقرا عليهما مزمومتين في نطق صاد مضمومة دون أن يؤثر فيها سكون اللام. هل قلت: «**نبقى على تواصل؟**».

شكر مُستحق

للرائعة دعاء الشامي، لقد وهبتِ هذا الكتاب من وقتكِ ما لم أهبه، ولولا أنكِ تكتبين أحسن من هذا لكان حقا عليَّ أن يكون اسمكِ مرافقا لاسمي في غلاف الكتاب.

للصديق الأديب أحمد فال ولد الدين.. شكرا لأنك اقترحت فكرة الرواية في المكان والزمان المناسبين.

للأستاذ الكبير والقدوة في التحدي أسعد طه، شكرا لإشادتك بنص لكاتب لا تعرفه ولم تلتقِ به، كانت كلماتك الدافع الأكبر لاتخاذ قرار النشر.

للأستاذين العزيزين: حجي جابر، محمد ولد إدومو، شكرا لما أنرتما به بصيرتي من ملاحظات وما غمرتماني به من تشجيع.

للأخوين محمد مسكه، والمرتجي ولد الوافي.. لولا تدقيقكما المفصل لما كان لهذه الرواية أن تطبع.

وشكرا لمن لا يملون الانتظار.

حياة مثقوبة

«أظن أني استعدت شعور الخوف، لا أعرف ممَّ أخاف الآن بالضبط: هل أخاف من عجزي عن إكمال هذه الأوراق، أم أخشى الموت وحيدًا مجهولًا في مكان لا يعرف عني سوى اسم مكتوب على وثائق لا تنتمي إلى حيث ولدت، أم أني أتوجس من نهاية حلم قُدِّر له أن يتوقف قبل الاكتمال.

بدأ التنمل يسري في قدمي اليمنى صاعدًا إلى رجلي وظهري، وأسمع خشخشة خفيفة في عمودي الفِقْرِيّ كأنها حفيف أوراق يداعبها النسيم، وأصابعي الثلاث لم تعد تقوى على إمساك القلم. تلمع الآن في مخيلتي عيناك الهاربتان من اللقاء الأخير، وشفتاك تتحركانْ في عرض بطيء وهما تتلامسان لنطق الباء ثم تفترقان بمسافة سنتيمتر واحد لمدّ القاف، وتحافظان على المسافة ذاتها فيحمل الهواء منطوق لفظك، ثم يكتمل المشهد مستقرًا عليهما مزمومتين في نطق صاد مضمومة دون أن يؤثر فيها سكون اللام، هل قلت: «نبقى على تواصل»؟».

«بدأت القراءة متكاسلًا، لكن الحروف دفعتني دفعًا.. هي رواية عن الموت، لكنها تبث فيك الحياة والحب».

أسعد طه - كاتب وصحفي مصري

أحمد ولد إسلم: كاتب وصحفي موريتاني. يكتب القصص القصيرة منذ سنوات، فاز بجائزة بي بي سي ومجلة العربي الكويتية لشهر أغسطس عام ٢٠٠٩ عن قصته «ورقة عائمة». نشر عام ٢٠١٥ مجموعة قصصية بعنوان «انتظار الماضي» كانت من أكثر الكتب مبيعًا عند صدورها. عمل منتجًا في قناة روسيا اليوم، ومراسلًا حربيًّا ومنتج أخبار في عدة قنوات إخبارية. ويعمل رئيس تحرير نشرات في قناة الجزيرة، ومنتج برنامج الجزيرة هذا الصباح، وهو كاتب عمود في صحيفة الأخبار الموريتانية الأوسع انتشارًا، ونشرت مقالاته في عدة صحف عربية.

دار الشروق
www.shorouk.com
9 789770 938269

مكتبة نوميديا